

عظماء ومصلحون من مصر دراسات وبحوث

رفاعة الطهطاوي
عبدالله النديم
أحمد لطفى السيد
محمد حسين هيكل
محمد طلعت حرب
محمد شفيق غربال
أحمد عرابي
عبدالعال حلمي
على فهمي
على الروبي
الأميرة نازلي فاضل
أم كلثوم
محمد عبدالوهاب
عبدالحليم حافظ

د. عبدالمنعم إبراهيم الجميلى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

إن معرفة تاريخ مصر إنما هو محاولة
لمعرفة النفس ، ونحن فى حاجة إلى
معرفة أنفسنا .

القاهرة

٢٠١٨

obeikan.com

مقدمه

هذا الكتاب عبارة عن تراجم Biographies تضم كوكبة من عظماء المصريين ما أحوج أبناء هذا الجيل إلى ان يتعلموا دروس الوطنية والكفاح من أجدادهم الذين كان شعارهم " بلادى هواها فى لسانى وفى دى ، بمجدها قلبى ، ويدعو لها فمى " وأن مصر هى الحياة ولا حياة بدون مصر.

وما أحوج أبناء هذا الجيل إلى أن نصل حاضرهم بماضيهم حتى ننير لهم طريق المستقبل ، وان نثبت لهم ان روح أبناء مصر الوطنية سليمة ووثابة ، ومتعشة للتقدم مهما قسى عليها الزمن خاصة وان مصر جذوة انسانيه من أقدم الجذوات اشتعلا ، وأروعها وأظهرها للعيان ، فمصر مكانها القلب ، ونحن نسكن فى اركانها ، والأيام تمر وتذهب ، بعضها يتحول الى ذكريات ، وبعضها يتحول الى دروس ، ومع ذلك تبقى مصر خالدة طالما الزمن باقى واذا كانت مصر هبه النيل كما قال " هيرودوت " فانها أيضا هبة المصريين كما ذكر " جمال حمدان " . خاصة وان جد المصريين فرعونى جليل ، والأب عربى نبيل ، والاد فى الحاليتين بنت النيل.

وما أحوج أبناء هذا الجيل الى ان يتعرفوا على تاريخ وطنهم . وما قدمه العظماء من ابائهم من اجل رفعه شأنها ، حتى تتبوأ مكانتها بين الأمم ومن ابائهم من كان امل الجماهير المظلومة فى استرداد حقوقها ومنهم من كان بطلا قوميا بكل ما تحمله الكلمة من معان ، وحكاية هؤلاء وهؤلاء اثبتت قدره الشعب المصرى على التحدى ، ومواجهه الصعاب . وأن حكاياتهم كانت مدرسة رائده للوطنية المصرية . تشكل من خلالها الوعى الوطنى لأجيال متعددة من المصريين.

وهذه الصفحات التى نقدمها فى هذا الكتاب تضم كوكبه من عظماء المصريين الذين قاموا بدورهم فى بناء مصر الحديثة ، وهؤلاء يمثلون نماذج تمثل التاريخ الوطنى والاقتصادى والفكرى للشعب المصرى فى تاريخه المعاصر بهدف مدى تأثير هذه الشخصيات فى المجتمع المصرى . ومدى تفاعل هذه الشخصيات مع المجتمع

ومع اختلاف هؤلاء من حيث الزمن والنشأة ودرجة الثقافة فهم جميعا لديهم الإحساس بالتعبير عن الحياة بما فيها من مباحج ومتاعب . ويمتازون بشفاافية الروح ويستلهمون الجمال فى مختلف ألوانه وعلى راس هؤلاء يقف شامخا رفاعة الطهطاوى رائد حركة التنوير . وعبد الله النديم خطيب الوطنيه واحمد لطفى السيد استاذ الجيل ومحمد حسين هيكل الذى ذلل القصة لكتابتها كما ذلل الكتابة الصحفية لاهن . ومحمد طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى ، ومحمد شفيق غربال مؤسس المدرسة التاريخية الحديثة.

وبالنسبة لرجال الحركة الوطنية نذكر أحمد عراسي وعبد العال حلمي، وعلى فهمي، وعلى الروسى وغيرهم من زعماء الحركة الوطنية.

ومن أمراء الاسرة العلوية الخديوية نذكر الاميرة نازلي فاضل أما عن مسك الختام فنعرض لرواد الموسيقى والطرب أمثال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وغيرهم.

وما أحوج أبناء هذا الجيل الى التعمق في دراسة شخصية هؤلاء وغيرهم ممن كان لهم ادوارا باررة في حياتنا المعاصرة.

فالتاريخ ليس مجرد عملية تجميع لحقائق بل يتعلق أيضا بمحاولات لاسترداد الماضي وتخيله، الماضي الذي لم نعد نستطيع أن نلمسه أو نراه والتاريخ لا يلامس شفاف القلب فحسب بل يلامس الرأس أيضا.

د. عبد المنعم الجميحي

رفاعة الطهطاوى رائد التنوير

د . عبد المنعم إبراهيم الجميحي

من الرجال من وضعت مصر عليه الآمال ، وخصصت له دورا كبيرا ليؤديه فاضطلع بمهمته بنقّة واقتدار ، وأظهر من الجدارة ما يعادل الأمل المعقود عليه فتحمل عبء بناء بواكير نهضتها الحديثية ، واستطاع إضاءة مشاعل الفكر والتنوير بعد أن جاء بمنظومة ثقافية جديدة على فكر المصريين استطاع من خلالها أن يمزج الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية دون المساس بهوية مصر الثقافية . إنه رفاعة رافع الطهطاوى الذى استطاع بفكره وأعماله وكتاباتة أن يقدم رؤية دقيقة لكيفية إصلاح أحوال مجتمعه . ومن حسن حظ مصر أن حاكمها وقتذاك وهو محمد على كان قد شرع في وقت عملية الانكفاء على الذات ، وتنظيم شئون البلاد وإصلاح إدارتها بنقل علوم الغرب ونظّمه وطرائقه إلى مصر فوجد رفاعة الساعد الأيمن له في تنفيذ هذه المهمة .

لقد ولد رفاعة في العام الأول من القرن التاسع عشر وتعلم في الأزهر ثم أرسل إلى باريس إماما للبعثة التي أرسلها محمد على إلى فرنسا ، ولكن طموحه دفعه إلى الدراسة وتحصيل العلم والمعرفة هناك ، وبعد أن عاد رفاعة إلى مصر في عام ١٨٣١ كان متحفزا لعمل خطير ألا وهو إصلاح المجتمع المصرى بتعليم الشعب وتنوير العقول بعد أن

رأى مدينة الغرب عن كذب . ولما كانت مصر تتذكر دائما أبناءها العظام الذين وضعوا اللبنة الأولى في بناء نهضتها ، وبذلوا الجهود من أجل رفعتها فقد عقد المجلس الأعلى للثقافة مؤخرا ندوة دولية موسعة بمناسبة مئوية الثانية لميلاد رفاة الطهطاوى بعنوان "رفاعة الطهطاوى رائد التنوير"^(١) اشترك في جلساتها أكثر من ستة وخمسين من الباحثين المصريين والعرب والفرنسيين ، وقد شملت الندوة ثمانية محاور رئيسية فكان المحور الأول بعنوان "رفاعة وعصره" تناول قضية التحديث وعلاقته مع أوروبا ، وحركة الإصلاح عند رفاة ، ورؤية رفاة لمتغيرات العصر . وتناول المحور الثاني المعنون "رفاعة مفكرا سياسياً" فكرة الوطنية عند رفاة ، وفكرة المشاركة السياسية ومفهوم السلطة عنده ، وعلاقته بالسلطة ، وكان المحور الثالث بعنوان "الفكر الاجتماعي لرفاعة" وتناول المرأة في كتابات رفاة وقراءة في وثيقة زواجه ، ورفاعة والأخذ بأسباب الحداثة ، ووصايا رفاة الفكرية ، ورفاعة بين وعى الريف وعقلية المدينة . وتناول المحور الرابع "الرؤى الاقتصادية عند رفاة" أفكار رفاة الاقتصادية ، والمنافع العمومية والتمدن في فكره ، ومقارنة بين أفكار رفاة الاقتصادية وتولستوى ، وكان المحور الخامس بعنوان "رفاعة والصحافة" وتناول التحرير الصحفى عند رفاة ومقالاته في الوقائع المصرية وروضة المدارس ، وتناول المحور السادس "الجوانب الأدبية عند رفاة" ، وقد تم التركيز فيه على الشعر والأدب وأدب الرحلات . وكان المحور السابع بعنوان "جهود رفاة في مجال التعليم" وتناول دوره في صياغة النظام التعليمى ومفهومه للتربية ، ومقالاته التعليمية ، أما المحور الثامن المعنون "رفاعة والترجمة" فتناول

عقدت هذه الندوة فى الفترة من ٢٠/٣/٢٠٠٢ إبريل

قضايا المصطلح والترجمات العلمية والأدبية ، وإنشاء مدرسة الألسن ودورها في حركة التبريب والترجمة . وبالإضافة إلى محاور هذه الندوة كانت هناك ثلاث موائد مستديرة ناقشت موضوعات مهمة على مدى أيام الندوة الثلاث وهي "النخبة والقاعدة الاجتماعية" ، و"المشروع النهضوي المصري" ، و"تساؤلات عن الحاضر والمستقبل". والجديد في هذه الندوة أنها طرحت موضوعات لم يتطرق إليها أحد من قبل مثل ، "الأنا والآخر عند رفاة ، والمصطلح وترجمته" ، و"أفكار رفاة الاقتصادية" ، و"مدرسة الألسن" ، وأهمية العمل اليدوي وعدالتيه عند رفاة وبعض مفكرى عصره من الأوربيين ، و"المدرسة بين الطهطاوى وبين طه حسين سياسة المتقف الحديث ويوتوبيا المدرسة" .

وحول الأنا والآخر . فقد حاول رفاة إيجاد حالة من التوازن حول هذه العلاقة ، فكان يرى أن فرنسا متقدمة لأنها أخذت بوسائل العلم وأنه أخذ منها من وسائل العلم والعمران والتقدم ما لا يتناقض مع جوهر الإسلام ، كما شبه الحرية والديمقراطية والمساواة التى قامت عليها نهضة فرنسا بالعدل والإنصاف في الإسلام ، وأنه إذا كان لا يوجد تناقض بينها وبين الإسلام فلماذا لا يتم الأخذ بها ، وإلى جانب ذلك فقد كان يرى أن تقدم الآخر علينا في الإدارة والعلوم والتنظيم لا يعنى تقدمه في كل شئ فنحن متقدمون عليه في الأمور الدينية ، كما كان يرى أن الاستفادة من حضارة الغرب لا يعنى التخلى عن العقيدة الإسلامية ، يضاف إلى ذلك أن رفاة قارن بين طبائع الأنا والآخر فذكر أنه مما يستحسن في طباعهم حب النظافة مع أن حب النظافة من الإيمان . ومعنى ذلك أن الأنا عند رفاة كانت تدفعه إلى إعطاء

الأولوية للدين عن الدنيا والعلم بينما يرى في الآخر أنه يعطى الأولوية للعلم والدنيا عن الدين والآخرة .

وحول قضايا المصطلح وترجمته فإنه في إطار إدراك رفاة لمتطلبات مرحلة التحول الحضارى في مصر حاول التغلب على مشكلات ترجمة المصطلح وصياغته بوضع قوائم بالمصطلحات الحديثة التى وردت في بعض ترجماته ، كما حاول تعريف معاصريه بتعدد اللغات الأوربية القديمة والحديثة . يضاف إلى ذلك أنه استخدم كلمات وتراكيب كثيرة من أصل عربى وبعضها من اللغات الأخرى .

وهكذا نجد أن العديد من الكلمات الجديدة اتخذت دلالات اصطلاحية عند الطهطاوى ومعاصريه وأصبح عدد كبير منها من الرصيد الأساسى للمصطلحات اللغوية في العصر الحديث ، ومعنى ذلك أن الطهطاوى كان على وعى بأن اللغة العربية تدخل مرحلة جديدة فقدم مفاهيم جديدة عبر عنها لأول مرة باللغة العربية فوضع لها بالمقابل العربى مع المصطلح الأوربى .

وبالنسبة لأفكار رفاة الاقتصادية فتوضح في حديثه عن قيمة العمل وقوة العمل والعمل المنتج للأموال ، والصناعة ، والسوق ، والبنوك ، والمعاملات التجارية ، والدخل القومى الناتج عن الزراعة والصناعة والتجارة ، وتفضيل رفاة للزراعة . ومع أن رفاة في تناوله لهذه الموضوعات كتب ما شاهده من معاملات تجارية وما قرأه في كتابات الفرنسيين فإنه في عرضه لهذه الموضوعات لم ينس ثقافته الإسلامية التى كانت مقياسا لكل شئ يراه ويكتبه ، فإنه رغم محاولاته

إدخال بعض أفكار الثورة الفرنسية في النهضة المصرية الحديثة ، فقد كان متحفظاً في ذلك إلى حد كبير .

وحول مدرسة الألسن التي أنشأها رفاة فإنها كانت إحدى الأدوات الهامة التي أدت إلى ربط الثقافة المصرية بالثقافة الأوروبية حيث نقلت العديد من كتب التراث الغربي إلى العربية خاصة وأنها كانت أول معمل لتفريغ المترجمين عرفه العالم العربي قدمت من خلاله البارغين في فن الترجمة والقادرين على التحرير والكتابة والذين أسهموا في بناء الأجيال .

وقد قامت هذه المدرسة بترجمة الكثير من الكتب في الطب والهندسة والكيمياء والطبيعة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والعلوم والفنون الحربية، هذا بالإضافة إلى ترجمة القانون الفرنسي Code Napoleon الذي يعد أبرز أعمالها وقد استمرت هذه المدرسة في تأدية دورها التثويري حتى تم انضمامها إلى جامعة عين شمس لتكون إحدى كلياتها ، ولتواصل الرسالة التي أرادها لها رائدها الأول رفاة الطهطاوى .

وبالنسبة لأهمية العمل اليدوي عند رفاة فإن قضية العدالة الاجتماعية كانت واحدة من أهم القضايا التي شغلت فكر رفاة ، فقد رفع من شأن قيمة العمل والقائمين به لاسيما الفلاح الذي يمثل الأغلبية الشعبية الساحقة ، كما عارض استغلال كبار ملاك الأراضي لجهود الفلاحين ، ودافع عن حق الفلاح في جني ثمار عمله .

أما بالنسبة لموضوع "المدرسة بين الطهطاوى وطه حسين سياسة المتقف الحديث ويوتوبيا المدرسة" ففيه جسّد الطهطاوى صورة المتقف

الحديث وأكد أن الثقافة ملكية عامة تهذب البشر وتدفعهم إلى تكوين مجتمع جديد يؤمن بقوة المعرفة ، وبضرورة إراجها في مشروع اجتماعي ينقل المجتمع نقلة حضارية إلى الأمام ، وذلك في إطار مجتمع إسلامي يأخذ معرفة الغرب دون أن يتخلى عن الثوابت ، أما طه حسين فإن فكره يختلف عن رفاة في كونه يرغب في محاكاة النموذج الغربي خاصة الفرنسي بكل ما فيه، ومع ذلك فإنهما يتفقان في السياق ، فقد أملى على الطهطاوى كما أملى على طه حسين الانطلاق من نقطة غائمة قلقة تستدعى الإرادة الفاعلة ، كما تستدعى المحاكاة ، وعلى الرغم من أن الفاصل الزمني بينهما واضح فإن أوجه الشبه بين الطرفين تتضح عند مقارنة كتاب مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين بكتاب المرشد الأمين للبنات والبنين لرفاعة ، فبين الكتابين أكثر من صلة وعلاقة .

وبالنسبة لمؤلفات رفاة فقد قدم إلى المكتبة العربية العديد من المؤلفات التي ترقى إلى مستوى الموسوعات التي لا يستغنى عنها أى باحث أو قارئ يريد فهم المجتمع المصري وتاريخه خلال القرن التاسع عشر . وهذه المؤلفات تؤرخ للعقل المصري في مسيرته الطويلة من الرضا والقناعة إلى التساؤل والبحث ، ومحاولة فهم المجهول الذى يحيط بالإنسان المصري وحياته ، كما قدم بها العديد من النماذج التى تثير في المواطنين الطموح إلى المعرفة والثقافة والمساهمة في خدمة بلادهم على نطاق أوسع . ومن كتب رفاة الهامة أنوار توفيق الجليلي في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل ، وفيه تعرض لعصور القراعنة والرومان والبطالمة والبيزنطيين وختمه بالفتح العربي لمصر بطريفة جديدة ، نهج فيها منهجا علميا لم ينقص فيها من قدر أمجاد مصر

القديمة أو بلعنها كما كان يفعل سابقوه ، وإنما آمن بأمجاد هذا التاريخ ، ورغب في أن تستعيد مصر أمجادها التي كانت عليها في عهد الفراعنة، وكتب عن سيرة الرسول ﷺ كتابا بعنوان "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز" تتبع فيه حياة الرسول منذ مولده ومراحل دعوته وهجرته وما يترتب عليها إلى وفاته ، كما قدم دراسة هامة عن المؤسسات السياسية والإدارية والاجتماعية والمالية في الإسلام في محاولة منه للخوض في هذا الموضوع بطريقة علمية . ولرفاعة غير هذين الكتابين مؤلفات لها قيمتها التاريخية ، فحول رحلته إلى باريس كتب جيمس الأبريز في تلخيص باريز "أو الديوان النفيس بإيوان باريز ، وهو عنوان مسجع على نحو ما كان شائعا في ذلك الوقت ، وفيه عرض لرحلته في فرنسا ولحركة الاستنارة الأوروبية التي غرستها فيه هذه الرحلة ، فتحدث عن قيام الفرنسيين بخلع الملك شارل العاشر في عام ١٨٣٠م وقيام ملكية يوليو الدستورية ، وتعرض للمبادئ الدستورية التي غرستها الثورة الفرنسية في نفوس الفرنسيين والتي نصت على مبدأ تكافؤ الفرص وما للمواطن الفرنسي من حقوق وما عليه من واجبات ، كما نصت على حرية العقيدة والعبادة وعلى حرية الرأي في حدود القانون والصلح العام .

وحول ما يخص آداب عصره كتب "مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية" وهو أول كتاب عربي ينزع إلى الناحية الوطنية ، فيذكر معنى الوطن ومزاياها ويتعرض لفكرة التسامح الديني والأخوة في الوطن ، كما يتعرض للمنافع العامة ، فيخصص لها أكثر أجزاء الكتاب ، فيذكر الآمال التي يأملها في المنافع العامة في كلمات تحفل بمعاني التكريم والولاء لمصر وشعبها ، فمصر في نظره

أم الدنيا وروضتها ، وأنها دون غيرها من الممالك أعظم تمدينا وتقدما ، كما أن أهلها لديهم درجة عليا من الفنون والمنافع العمومية وهو ما تشهد به الآثار المصرية التي تعد من أكبر مصادر الفخر للمصريين بحكم احتوائها على المقومات الأساسية للحضارة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كما قسم رفاة العمل إلى أعمال منتجة وأخرى غير منتجة ، وعزز ذلك بأمثال الحكماء ، وآداب البلغاء وكلام الشعراء ، وفي خاتمة الكتاب يتطرق رفاة إلى ما يجب على المصريين تجاه وطنهم بأسلوب جمع فيه بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية .

وحول ما يخص تربية الناشئة كتب رفاة "المرشد الأمين في تهذيب البنات والبنين" وهو كتاب في الآداب والتربية العامة ، وضعه رفاة ليكون أداة صالحة لتعليم البنين والبنات وتثقيفهم ، وفيه تحدث عن الوطن ، وخصائصه والتمدن والحريات العامة وغيرها ، وإلى جانب ذلك قام رفاة بإصدار أول مجلة ثقافية علمية تصدر في مصر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بالاشتراك مع على باشا مبارك وهي مجلة روضة المدارس المصرية التي صدر العدد الأول منها في الخامس عشر من المحرم عام ١٢٨٧هـ الموافق ابريل ١٨٧٠م وكانت روضة حقه تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارعة ، كما كانت مجالاً لتدريب اقلام الشباب على الكتابة الصحفية وقد طرحت هذه المجلة عدة تساؤلات أهمها :

على أي منهج يكون تحول مصر الحضاري ؟ هل نعود إلى الماضي وننعم بالعيش في فردوسه المفقود ، ونقطع كل صلتنا بالحاضر ؟ أم نقفز قفزاً إلى آفاق المستقبل ونقطع كل صلتنا بماضيها

المجيد ؟ وكان الجواب حاضراً تجسده شخصية رفاة الطهطاوى الذي كان ثمرة ناضجة من ثمار امتزاج الماضي بالحاضر ، وتكوين مركب جديد فيه أنضر ما في الماضي من صفحات ، وأعذب ما في الحاضر من منجزات .

وتأتي أهمية هذه المجلة من أنها أول مجلة ثقافية في مصر ، كما أنها كانت أداة للتطوير في المشروع النهضوى ، وعلى أي حال فإنه يمكن القول أن التسجيل التاريخي أصبح بفضل جهود الطهطاوى ومدرسته تسجيلاً تاريخياً بالمعنى الحقيقي لكلمة التاريخ وذلك نتيجة للمنهج العلمي الذي اتبعه ، والدقة والموضوعية التي سار عليها فقدم لنا بذلك رؤية حضارية للإطار العام الذي سارت عليه النهضة المصرية ، كما فتح الأذهان لما يدور في العالم من أحداث ، مما يجعلنا نعدده رائداً من رواد حركة التطوير ، كما نجعل مؤلفاته مصدراً رئيسياً خلال كتابتنا للتاريخ .

وإلى جانب ذلك وضع رفاة رسالة في النحو العربي بعنوان "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" جمع فيها القواعد والأحكام النحوية بطريقة واضحة . وهكذا حمل رفاة مشعل الحضارة فاستطاع من خلال أعماله وكتاباته أن يقدم رؤية دقيقة لكيفية إصلاح أحوال مجتمعه ، بأفكار لم تكن مقتبسة من الثقافة الفرنسية فحسب ، وإنما كانت تمثل قناعات يرى أنها ضرورة من ضرورات رقى الشعوب ، كما أنه يخرج عن حدود الموروث من الشريعة الإسلامية ، وإنما كان يرى أن هذه الأفكار لها أساس من الإسلام ، يضاف إلى ذلك أن رفاة كان أول من صاغ مصطلح الوطن في إطار الموروث التاريخي لمفهوم الأمة الإسلامية ليضع بذلك حجر الزاوية في بناء الفكرة القومية ، هذا

إلى جانب أنه دعا إلى التسامح الديني بين الأديان ، وناقش عدة قضايا اجتماعية بطريقة موضوعية متزنة بعيدة عن الانبهار بالغرب أو التعصب للشرق .



رفاعة الطهطاوى رائد التنوير ❀

من ٢٠ إلى ٢٢ أبريل ٢٠٠٢

القاهرة ❀

عبد الله صباح ابراهيم الأدريسى الشهير بالنديم. ولد بالاسكندرية، ونشأ في أسرة كادحة حيث لعب الفقر دوره في حياته الأولى، وتأزرت العوامل التي جعلته يشعر بالنديم. شعبه، فقد كان والده خبازاً، وترى في مسكن متواضع في حارة ضيقة من حواري حى الجمرك القريب من ميناء الإسكندرية وتعلم القراءة والكتابة في كتاب الحى، ثم استكمل دراسته بالجامع الأنور بالإسكندرية، ولكنه لم يستمر به طويلاً خاصة وأنه وجد في نفسه ميلاً لدراسة الأدب والإحاطة بالحياة الشعبية وسماع الحكايات والنوادر والأمثال، وتقيف نفسه ثقافة حرة غير مقيدة بمنهج دراسى أو غيره فارتاد المقاهى والمنتديات الشعبية يستمع إلى شعراء الربابة وزجل الزجالين.

ترك النديم الاسكندرية بحثاً عن رزقه بعد أن تخلى والده عنه ورفض الاتفاق عليه نتيجة تركه للمدرسة وطاف ببعض البلاد ليجد مكاناً على موائد العمدة والأعيان ينالهم ويمتعهم بانشاده، وانطلق لسانه بالزجل مع فريق من الأدبائية خلال مولد السيد البدوى عام ١٨٧٧م مما زاد من شهرته. تعلم صناعة التلغراف، والتحق بمركز التلغراف ببنيها ثم نقل إلى القصر العالى الذى كان تقيم به الأميرة "خوشيار خانم" والدة الخديو اسماعيل بالفاخرة وحلال ذلك تردد النديم على مجالس الأدباء ورجال الفكر وجالسهم وعندما سمع بمجلس الإنفستى التحق به، واستهوته أفكاره الجريئة التى تتردد فيه، وتلمذ النديم على الافغانى الذى أعطاه من اهتمامه الكثير لتقته أنه سيكون الخطيب المؤثر فى عواطف الجماهير لما لاحظته فيه من نبوغ وقدره على المناظرة والجدل.

وقد تلاصقت أفكار الافغانى السياسية مع تكوين النديم، كما أنها أوضحت له الرؤية السياسية والوطنية لذلك كان يهرع إلى مجلس أستاذه كلما فرغ من عمله بالقصر العالى واستمر على ذلك حتى فصل من عمله نتيجة لكثرة تغيبه فانقل إلى ميادين الحياة الفسيحة يضرب فى مناكبها مبتغياً الوسيلة لكسب عيشه، فجاب القرى والمدن حيث اشتغل بالتجارة لفترة ولكن نفسه الثائرة لم تجد استعداداً للعمل بالتجارة فاهملها وعاد إلى مجالس أستاذه الذى كان يتحدث عن ضرورة التخلص من الظلم الاجتماعى والحكم الفردى والتدخل الإحنسى والاستناد الواقعى عن أعناق المصريين.

وقد دخل النديم المحفل الماسوني "كوكب الشرق" بالاسكندرية فى عام ١٨٧٨ بتشجيع من استاذة على أمل ان يجد فيه ما تتوق إليه نفسه من حرية القول وإتاحة تبادل الأفكار. ولكنه انسحب منه بعد أن خاب ظنه فيه، وخلال ذلك كتب فى صحيفتى "مصر" و "التجارية" المقالات التى يبصر الناس عن طريقها بمبادئ الحرية والمساواة ولما علم النديم بوجود جمعية "مصر الفتاة" السرية بالإسكندرية التى تهدف إلى خلق الخديو اسماعيل انضم إليها وخلال ذلك وبينما كان النديم يقوم بدوره فى تعبئة الشعور الوطنى كان رجال الحركة الوطنية مصرع العسكريين يجوبون القرى والمدن تمهيدا لنشر دعوتهم، وجذب شعور الأهالى تجاههم فقابلوا معه. ودارت بينهم مشاورات انتهت بانضمامه إليهم والوقوف بجانبهم حيث وضع خبرته فى العمل الجماهيرى لخدمتهم. وبعد نجاح العربيين فى فرض إرادتهم وعزل عثمان رفقى خلال حادث قصر النيل فى ٤ فبراير ١٨٨١ استغل النديم مباركة الشعب لموقف الضباط واثار على عربى بطبع منشور يطلب فيه من الأهالى تقويضه فى المطالبة بحقوقه والتحدث باسمه. وقد وافق عربى على ذلك وكلف النديم بتوزيع هذا المنشور على الأهالى وكان من اثر ذلك قدوم الوفود الشعبية لمبايعة عربى على تخليصهم من المظالم الداخلية التى يتعرضون لها والمخاطر الخارجية التى يتعرض لها الوطن. وقد أفاد عربى من هذا التفويض عند قيامه مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ حيث استند على إنابة الأمة له خلال مواجهته للخديو وإلى جانب ذلك فقد شجع انديم على تأسيس جمعية الشبان بالاسكندرية لتكون ركيزة شعبية يمكن للعربيين الاستناد عليها فى مراحل تضالهم الوطنى، كما أسس صحيفة "التكيت والتبكيث" التى تناولت مشاكل المجتمع المصرى الاجتماعية والسياسية وبعد ازدياد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد استبدل هذه الصحيفة بجريدة "الطائف" التى اهتمت بالأحوال السياسية ذات الطابع الثورى الواضح حتى أصبحت صحيفة الثورة الأولى فكانت منذ صدورها فى يونيو ١٨٨٢ بمثابة لسان حال العربيين الرسمى وترجمانهم الصحيح وعندما حدثت المعارك بين العربيين والإنجليز أخذ للنديم فى تعبئة الشعور الوطنى. فنظم أسلوب الدعاية للمعركة وضاعف من جهودهم وتحمل المسؤولية كاملة، حتى تغير ميزان المعركة لصالح الإنجليز. فأعد النديم عدته للاختفاء، وعلى الرغم من محاولات الحكومة الترصده والقبض عليه بكافة الوسائل، وإعلانها عن مكافأة كبيرة قدرها ألف جنيه لمن يقبض عليه حيا أو ميتا، وإعدام كل من يؤويه فقد انفرد النديم بمصير له يشترك فيه أحد غيره وهو الاختفاء عن أعين السلطة لمدة تزيد عن التمسع سنوات نجح خلالها فى تأليف العديد من الكتب كان أبرزها كتابه كان ويكون".

وبعد ان تم القبض على النديم في الثالث من أكتوبر ١٨٩١ تم التحقيق معه
ومحاكمته، وانتهى الأمر بنفيه إلى يافا بفلسطين حيث شغل نفسه هناك بالتأليف فكتب عن
صائفة السامرة كتابا سماه "التذكرة العامرة بأحوال السامرة" كما ألف كتابا اخر بعنوان "الرحلة
في الرحلة".

وبعد وفاة الخديو توفيق، وتولية ابنه عباس الثاني أريكة الخديوية صدر العفو عن
النديم في ٣ فبراير ١٨٩٢ فعاد إلى مصر، ومع أن أحواله الصحية كانت قد ضعفت من اثار
ما تعرض له أثناء الاختفاء والنفي، ومع انه كان باستطاعته أن يكتفى بما قدم من توضيحات
في سبيل مصر فإنه أثر الجهاد وبث روح المقاومة بين فئات الشعب فأسس مجلة "الإستاد"
وساند مواقف الخديو ضد الانجليز، وكشف النقاب عن كراهيته للاحتلال واستطاع عن طريق
صحيفته الاستاذ ان يشعل نار الوطنية من جديد، وخلال ذلك اتصل به الزعيم الوطني
مصطفى كامل وتلمذ عليه، وعرف منه حقيقة التيار السياسي في البلاد، وكيف شوه رجال
الاحتلال مبادئ العربيين، كما تعلم منه القواعد التي إذا اتبعتها يكون وطنيا ناجحا وقد سز
مصطفى كامل على هدى تعليمات استاذة في مراحل كفاحه الوطني

ونتيجة لذلك بدأت سلطات الاحتلال تشعر بخطورة النديم وتطالب بإبعاده عن مصر
فعاد النديم إلى منفاه بيافا بعد أن رتب له الحكومة المصرية معاشا شهريا قدره خمس
وعشرون جنيها تصرف له ابتداء من ١٥ يونيو ١٨٩٣ طالما بقى مقيما خارج البلاد
المصرية بشرط ألا يكتب شيئا عن مصر لا سياسيا ولا أدبيا.

وما أن وصل النديم إلى يافا لم يستطع الوفاء بشرط الحكومة المصرية بخصوص
عدم التحدث في السياسة فتطرق حديثه إلى مصر وإلى المساوي التي سببها الاحتلال
الانجليزى لها، كما تعرض لسياسة الدولة العثمانية فأخذ ينتقد السلطان الذي لم يقف مع مصر
في محنتها، وأعلن عصيان عرابي للانجليز لذلك فلم تطل مدة اقامته بيافا إذ بلغت السلطان
أقواله فأمر بإخراجه منها واستقر أمره بسفره إلى الامتانة وتلحظت عليه هناك حتى يكون
تحت سمع السلطان وبصره.

وفي الامتانة نال النديم الحظوة لدى المقام السلطاني خاصة وأن السلطان عبد الحميد
كان يحاول استرضاء أرباب الأقلام ونوى الأفكار الثائرة ليتقى مهاجمتهم له ويضمن تاييده
لسلطته الزمنية، ويعزز بهم مكانته ويوطد سيطرته خاصة وأنه يتمسك بحقوقه في الخلافة.
وهناك التقى النديم باستاذة الافغانى الذى استبقاه السلطان لديه أيضا، واتصلت لسيب اتفق
بينهما وقد غاش النديم في الامتانة معطل المواهب فلا خطابة ولا كتابة، وهو الذى لم يعرف

للهدوء طعما. ولما كان بحاشية السلطان عبد الحميد فى ذلك الوقت الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى كان يكره مصر والمصريين، والذى وصل نفوذه إلى كل أرجاء الدولة وكان الجميع يتقرب إليه لنيل رضائه، فإن النديم انطلق فى هجائه دون ان يعبأ بقدرته على الانتقام منه فخذ يخوض فى سيرته بأسانٍ حاد فاضحا لسانه واتخاذ الدين ستارا لتنفيذ اغراضه حيث كتب كتابا سماه "المسامير" اتهم فيه الصيادى وأسرته بكافة الرزائل والموبقات التى تمس الشرف والنسب مما اثار ثائرة الصيادى وجعله يبلغ السلطان بأمر الكتاب موضحا له ان هجاء النديم شمله كذلك مما دفع السلطان ابى إصدار أوامره بمصادرة الكتاب، ولكن النديم نوح فى تجريبه إلى مصر حيث طبع بها مكونا من مقدمة وتسعة مسامير فى أربعة وتسعين صفحة ومزينا برسوم كاريكاتيرية.

وحول فكر النديم السياسى فقد أيقظ بأفكاره الرأى العام المصرى بعد فترة رقاد فتحدث عن مفهوم القومية، ومبدأ مصر للمصريين وأهمية الوحدة الوطنية، وفكرة الجامعة الشرفية، وأهمية الديمقراطية كأساس للحكم فى مصر، والدستور كنظام له وتكلم عن الأحزاب وأهمية الاهتمام بالرأى العام، وفكره الجمهورية. وقد استطاع نشر هذه الأفكار والآراء بين أكبر عدد من أبناء وطنه حيث أوتى من المقدرة واللباقة ما مكّنه من تبسيط هذه الأفكار إلى العامة الفلاح فى حقّله، والتكديز فى مدرسته، والصانع فى عمله وبذلك أسهم فى تكوين رأى عام - وإن كان محدودا- يتطلع إلى الإصلاح السياسى. وظلّ النديم على وفائه للعمل السياسى واستطاع ان ينقل أفكاره للكثير من المصلحين والأدباء ورجال الصحافة وكان من هؤلاء مصطفى كمال.

وبالنسبة لموقف النديم من الإصلاح الاجتماعى فقد انشغل بما أصاب نومه من جيل من خرافات وحاول ان ينبههم إلى مضارها لاعتقاده بأن مصر لا يمكن ان تتخلص من السيطرة الأجنبية طالما ظل الجهل معشعا على عقول ابنائها، فكتب المقالات المخطوطة والفصحى الرمزية والمحاورات التى كتب بعضها بالعامية ليفهمها غالبية أبناء الشعب مصورا فيها الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تعيشها البلاد وما فيها من عيوب، كما كانت له الخطب الإصلاحية على منابر المساجد، وفى طرقات المدن والقرى والنجوع حيث قام بحملاته المكثفة على البدع وأعمال الشعوذة مطالبيا أبناء وطنه بالسعى حلف العلوم بدلا من السير وراء الخرافات.

لقد كان اهم ما فى النديم هو شعبيته، ورغبته الشديدة فى لإجتماع بمواطنيه. فهو رجل حالط الشعب بجميع طبقاته حيث انعتج من غمار عامة الشعب وعانى وذاق ما يعانیه

افزاده من فقر وحرمان فالتأم شقاؤد بشقاء أمته، فكانت كلماته تعبيراً حياً عما يدور حـمـ الشعب، ثم ارتفع الى مصاف القادة فلم يفتته المجد بل عمل على رفع مستوى معـه الاجتماعي وبعث وعبه الوطني والعمل على تعليمه فكان اعلم الناس بمحاسن هذا المجتمع وعيوبه.

لقد كان النديم حركة لا تهدأ، وكان رجلاً من رجال العمل ورجال القلم، ذكى القلب، سريع الخاطر عاش حياته يتأمل افراح وطنه، ويعانى مشاكله وهمومه فترجم عما يجول بحاطر شعبه.

لن ابرز ما فى النديم هو ذلك النشاط الروحى الزاخر وتلك العزيمة التى لا تنكسر عن العمل يوماً حتى وافته المنية فى غربته بالاسنانة.

فى الثالث عشر من أكتوبر ١٨٩٦ توفى النديم عن عمر يناهز الثانية والخمسين من عمره دون أن يترك اولادا حيث ماتوا جميعاً فى طفولتهم.

وقد احتفل بجنائزه رسمياً فى الاسنانة بأمر من السلطان حيث سارت امام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وكبار رجال الدولة والعلماء يتقدمهم جمال الدين الانغنى حيث دفن فى مقبرة "يحي افندى" فى "باشكطاش" بعيداً عن الأهل والوطن الذى عاش من اجله وقاس الكثير فى سبيله وكان العزاء لروحه يوم ان ماتت أنها سلمت راية الكفاح الى الجيل الجديد وعلى رأسه مصطفى كامل.

وقد كتب عنه كل من احمد أمين فى كتاب زعماء الاصلاح واحمد تيمور فى كتاب

تراجم اعيان، واحمد عطية الله فى كتاب عبد الله نديم، وجرجى زيدان فى كتاب تراجم مشاهير الشرق، وعبد المنعم الجميلى فى كتاب عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، وعلى الحديدى فى كتاب عبد الله النديم خطيب الوطنية ومحمد احمد خلف الله فى كتاب عبد الله النديم ومذكراته السياسية ومحمد عبد الوهاب صقر وفوزى شاهين فى كتاب عبد الله النديم، ونجيب توفيق فى كتاب عبد الله النديم خطيب الثورة العربية، ونفوسه زكريا فى كتاب عبد الله النديم بين طفصلى والعامية

أحمد لطفى السيد

(١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م)

أحمد لطفى بن السيد لطفى على بنعت باستاذ للجيل كانت حياته فصيحة متعددة الجوانب، فكان رسولا للفكر الليبرالى، وفيلسوبا للجيل، ورجل أمة عاش لوطنه، ومن أجله، فأسهم فى توجيه الحياة السياسية، والاجتماعية فى مصر توجيها وطنيا مخلصا، كما أسهم فى تقدم العلم والتعليم، ووضع اللبانات الأولى لانشاء مجمع اللغة العربية .

• لد أحمد لطفى السيد فى قرية برقين بمركز السنبلأوين دقهلية، فى ١٢٨٨ هـ (٧ شباط/ فبراير ١٨٧٠م)، فى اسرة مصرية تنتمى إلى البرجوازية الريفية، وهى الطبقة التى كان ينتمى إليها معظم قادة النهضة الفكرية فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وهناك بدأ حياته وتعليمه الأولى، ثم تدرج بعد ذلك فى مراحل التعليم حتى تخرج من مدرسة الحقوق الخديوية فى عام ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤م. ولما كانت وظائف القضاء تنتظر لولئك الخريجين فقد عين لطفى السيد فى سلك النيابة، ولخذ يترقى فيه حتى وصل إلى منصب وكيل نيابة فى عام ١٣١٨ هـ — ١٩٠٠م. وخلال ذلك فكر لطفى السيد فى انشاء جمعية سرية بهدف تخليص مصر من الاحتلال. وقد تأسست هذه الجمعية فى عام ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦م وأطلق عليها جمعية تحرير مصر.

ثم سافر إلى سويسرا بناء على طلب الخديوى عباس الثانى لاكتساب الجنسية السويسرية، والعودة إلى مصر لتحرير جريدة تقاوم الاحتلال تحت الحماية السويسرية حتى يحول دون اعتراض إنجلترا على ذلك. وبعد ان عاد إلى مصر قدم تقريرا إلى الخديو يتلخص فى ان مصر لايمكن ان تستقل إلا بجهود انثاى، وان من المصلحة أن يرأس الخديوى حركة شاملة للتعليم العام .

وفى اعقاب ذلك عاد لطفى السيد للعمل فى النيابة، ثم استقال منها وعمل بالمحاماة مع صديقه عبد العزيز فهمى (انظر المجمعيون، ص ٤٢).

وقد شارك لطفى السيد فى تأسيس "حزب الأمة" وادارة صحيفة الجريدة لسان حال هذا الحزب، وسرعان ماألمع اسمه بصفته واحدا من كبار الكتاب، وكان مكتبه بالصحيفة منتدى يلتقى فيه السياسيون والكتاب يتناقشون معه فى ظروف الوطن وأحواله. واستمر لطفى السيد يزول هذا للعمل حتى قامت الحرب العالمية الأولى فعاد إلى العمل الحكومى حيث عين رئيسا لنيابة بنى سويف فى عام ١٣٣٤ هـ / ١٩١٥م، ثم انتقل بعد ذلك للعمل كمدير لدار الكتب المصرية. وفى هذا المكان اخذ يترجم مؤلفات ارسطو لأن النهضة العلمية فى رايه لا تتم دون

الاعتماد في بادىء امرها على الترجمة قبل حركة التأليف (انظر قصة حياتى، ص ١٦٠).
خاصة وأنها تمهد لها كما حدث في عصر النهضة الاوربية.

ويرجع اختيار لطفى السيد لترجمة مؤلفات ارسطو الى ميله الى الفلسفة والمنطق، واعتقاده أيضا أن ارسطو كان أول من ابتدع علم المنطق، وأنه أكبر مفكر له أثر خالد فى التاريخ (انظر احمد لطفى السيد استاذ الجيل، ص ٨٣). وفى نوفمبر ١٩١٨ استقال لطفى السيد من دار الكتب ليشارك فى تأليف الوفد المصرى الذى تولى قيادة البلاد فى ثورة ١٩١٩ ثم عاد ثانية الى دار الكتب بعد خلافه مع سعد زغول. وقد عمل لطفى السيد بالجامعة المصرية القديمة عضوا فى مجلس ادارتها، ثم وكيلها. وعندما تأسست الجامعة الحكومية فى عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م عين لطفى السيد مديرا لها واستمر فى هذا المنصب حتى عام ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م فيما عدا فترات قضائها فى الوزارة وغيرها. وفى عهده كانت الجامعة مصدرا للتشعاع فى شتى الميادين، فسايرت حركات التطور الاجتماعى والاخذ بيد حركات التجديد. فقد وافق لطفى السيد على قبول الفتيات المصريات طالبات فى الجامعة فى غفلة من المحافظين على التقاليد مما كان له أثره فى دخول المرأة معترك الحياة العامة، ومشاركتها للرجل فى هذا المجال.

ومع سعة اطلاع لطفى السيد، وتمكنه فى العلم فقد كان يستمع الى كل رأى مهما كان مخالفا لرأيه او عقيدته لاقتناعه بان الحرية الحقيقية تحتل ابداء كل رأى، ونشر كل مذهب وترويج كل حقيقة. لقد كان ذلك شعاره الذى غرسه ونماه فى الجامعة فعمل الاجيال معنى الحرية والثقة فى الاعتماد على نفسها.

ومعنى ذلك ان الديمقراطية التى دعا إليها لطفى السيد لم تكن ديمقراطية السياسة، بقدر ما كانت ديمقراطية الفكر بكل أشكاله الاجتماعية والاقتصادية والفنية. لقد كان لطفى السيد يؤمن بالتطور، كما كان يؤمن بالحرية لذلك لم يرض أن يأخذ الأمور بالقسر بل كان يسود دائما ان يتعهدا وينميها لتثمر اثمارها الطبيعية سليمة قوية. (انظر صفحات من التاريخ، ص.ص ١٠٤، ١٠٥)

وإلى جانب ذلك فقد حرص لطفى السيد أثناء رئاسته للجامعة على أبعادها عن كل التيارات والمثيرات التى تحاول النيل من استقلالها فوقف بجانب الدكتور طه حسين أثناء أزمة كتاب "فى الشعر الجاهلى" مراعى فى ذلك المبادئ الاساسية للتعليم الجامعى، والشرف العلمى لاعضاء هيئة التدريس بالجامعة فقابل سعد زغول رئيس مجلس النواب من أجل رأب الصدع، ونجح فى ذلك إلى حد كبير، وظل صامدا أمام الزوابع حتى لم تستطع الضجة التى أثارت حول هذا الكتاب النيل من الجامعة (انظر الجامعة المصرية والمجتمع، ص.ص ٦٣-٦٩)

كما وقف لطفى السيد بالمرصاد لكل من حاول الانتقاص من هبة الجامعة وكرامتها او استقلالها فعندما نقلت حكومة اسماعيل صدقى الدكتور طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف على غير ارادته واردة الجامعة قابل لطفى السيد رئيس الوزراء، وأوضح له ان ماحدث يتنافى مع التقاليد الجامعية، ويسئ إلى الجامعة، وطالب بعودة طه حسين إلى الجامعة، ولما لم يجب إلى طلبه قدم استقالته من الجامعة، ولم يرجع إليها إلا بعد استقالة حكومة صدقى وإعادة طه حسين إلى كلية الآداب.

وحول دور لطفى السيد فى مجمع اللغة العربية، فان المجمع يدين له بفضل كبير خاصة وانه تبنى فكرة نشأته، وخصص لاجتماعاته قاعة فى دار الكتب قبل ان يولد رسمياً، وشغل منصب كاتب سره، وإلى جانب ذلك فقد استمر فى دعوته لانشاء مجمع تقوم الدولة باعبائه حتى صدر مرسوم بانشأته فى عام ١٩٢٣ (انظر مجلس المجمع: الدورة ١٩٥٩/٢٥، ص ٩٨).

وفى مجمع اللغة العربية استأنف لطفى السيد جهوده الجمعية فاشترك فى كثير من لجانته وتولى رئاسته، ونظرا لجهوده الرفيعة فى مجال العلم والادب والثقافة رشحه مجلس المجمع لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية وقدحصل عليها فى عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م لقد كان لطفى السيد قمة من قمم التجديد والبحث الفكرى فى مصر كما كان موضع احترام خصومه ومعارضيه فعلى الرغم من انه اختلف معهم وهوجم فى كثير من مواقفه الفكرية، فقد كان يتغلب على مناظريه او معارضيه بمبدأ جليل من مبادئ حرية الفكر التى كان يدافع عنها وهو المبدأ الذى يتجلى فى كلمة المشهورة " الخلاف فى رأى لايفسد للود قضية" وقد ذهب هذه الكلمة مثلا.

لقد احترمه خصومه قبل ثورة ١٩٥٢ كما احترمه قادة ثورة ١٩٥٢ لدرجة ان جمال عبد الناصر ذهب إلى بيته بعد الغاء النظام الملكى ليعرض عليه رئاسة الجمهورية فكان رده الفلسفى " إن الذين ارسوا قواعد هذا النظام الجديد بجهدهم هم أولى الناس بادراته، وإن الثورة لاتنجح الا اذا كان قائدها هو رئيس الجمهورية (انظر الاخبار فى ١٩٦٣/٣/٦).

وهكذا عاش لطفى السيد حياته كلها من أجل بلاده واعلاء حرية الفكر فيها، ومن أجل خدمة تضايها لدرجة يمكن معها القول ان حياته كانت سيرة أمة فى قرن من الزمن.

د. محمد حسين هيكل

الناهون الذين يسبقون عصرهم ، ولا يعيشون الحاضر بعقل الماضى قليلون فى كل جيل وكل زمان ومكان.

وعضاء المفكرين الذين يأترون العيش فى خلوتهم بين فكرهم وكتبهم معدودون والدكتور هيكل واحد من هؤلاء .

قال عنه المؤرخ المصرى محمد شفيق غريال انه " كان ممن وجهوا الرأى وخاضوا معاركه . وله فى الأدب والصحافة والسياسة آثار باقية على الدهر " .

وقال عنه الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى انه " ذلل القصة لكتابها ، وذلل السياسة الصحفية لكتابها ، وشارك زملاءه ومعاصريه فى تدليل اللغة العربية وتمكينها من أن تكون ملكا للذين يتكلمونها ^(١) "

لقد كان الدكتور هيكل موسوعيا متعدد المواهب ، كما كان لآثاره ودراساته مقامها المحمود بين كبار معاصريه ، فبالرغم من أن مجال دراسته التخصصى الذى حصل فيه على الدكتوراه كان القانون فاته لم يحصر نفسه فيه بل كان سياسيا بين الساسة ، ومفكرا بين معاصريه من المفكرين وأديبا مرموقا ترك للعربية تراثا متميزا فى مجال الأدب الرفيع ونتيجة لذلك فإن آثاره شاركت فى تغيير وجه الحياة المصرية الى حد كبير ، واخذت على عاتقها مهمة التنوير العقلى خاصة وانها فتحت أبواب الاحتكام الى العقل ، والتوفيق بين العلم والدين ، والانتقال من منابع الفكر الأوربى ، وحاولت التغلب على الحواجز والعقبات المتوارثة . والمشاركة الفعالة فى حركة البعث والتنوير ، وإضاءة مشعل الفكر الليبرالى الحر .

ولد الدكتور هيكل فى كفر غنام دقهلية فى اغسطس ١٨٨٨ ، وبدأت مواهبه الكتابية عنده مبكرة فكان وهو طالب يقضى اجازته الصيفيه فى قريته " كفر غنام " دقهلية ، ويصدر خلالها مجلة سماها " الفضيلة " وكان يوزعها على القراء فى قريته ، وفى القرى المجاورة ^(٢) .

ثم اخذ يكتب فى " الجريدة " التى انشأها لطفى السيد وكانت لسان حال حزب الأمة منذ انشائها فى عام ١٩٠٧ الى أن احتجبت عن الصدور فى عام ١٩١٥ كما كانت له فى الهلال والأهرام والمقتطف مقالات سياسية ذات طابع متميز عبر فيها عن تطلعات الشعب المصرى فى الحرية والاستقلال ففى الوقت الذى كان الشعب المصرى ينشد الحرية باحسامه علمه هيكل فى مقالاته كيف ينشدها بعقله وفكره ، وكيف انها تتلخص فى أن، يفعل الانسان ما شاء على ألا يعتدى على حرية غيره ، وكيف ان معناها الصحيح ينحصر فى أن يكون الكلام اداة الناس الى التفاهم وإلى النضال ، لأن ذلك هو غاية الحرية ، وأن الحرية تصبح كلمة يحترمها الناس ما لم تتعارض مع هواهم فاذا عارضت ذلك الهوى نزع ثوب انسانيتهم ، وانقلبوا إلى حيوانات تناضل بالسلاح .

١- د. محمد مهدي علام : مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما - المجمعيون - القاهرة ١٩٦٦ . ص ١٧٠ .

٢- مهدي علام : مرجع سابق ص ١٦٩ .

ومعنى ذلك أن حرية الانسانية فى نظر هيكل هى التى تجعل من الكلام أداة التعامل الانسانى وإذا وصلت الانسانية إلى هذا الادراك لمعنى الحرية كان للحرية معناها الصحيح^(١).

وفى الوقت الذى لم يعرف فيه الناس معنى الديمقراطية شرح لهم هيكل فى احدى مقالاته السبيل إليها مبينا أن الديمقراطية اساسها الحرية الفردية ، وان الحرية هى أن يعمل الفرد جهد طاقته وان يستمتع بنتائج عمله وان ايمان الناس بالحرية يعنى استعدادهم للتضحية فى سبيلها^(٢).

ومع ايمان هيكل بالحرية الفردية فقد كانت نتائجه لحظات ضيق عندما يتذكر حال الوطن وتعرض قضيته والوجود الاجنبى الجاثم على صدر بلاده فكان يتساءل فى ألم ما قيمة الحرية الفردية إن والوطن يخضع لهذه المذلة . وكبار رجالاته يعانون هذا الهوان^(٣).

كما تعرض هيكل لفترة الرأى العام على حماية الديمقراطية فذكر أن الأمم القوية هى التى يحكم فيها الرأى العلم على الحاكم والمحكوم جميعا . وفيها تعتبر الحكومة وكيلة عن الشعب ، فإذا هى خرجت عن حدود الوكالة حاسبها حسابا عسيرا وقام بلسقاطها

وانه فى الأمم القوية لا يستطيع أحد ان يعصف بالديمقراطية أما فى الامم الضعيفة فاتها تعبیر الحاكم سيدا لها لا وكيلا عنها^(٤).

وفى الوقت الذى ترددت فيه الدعوة الى احياء التراث العربى وإلى بعث آثار السلف دعا هيكل فى مقال له إلى احياء هذا التراث وبعثه باعادة نشر ما فيه بلغة هذا العصر وأسلوبه على ان يتعاون المثقفون فى انحاء الوطن العربى فى هذا احياء المتمر واستند فى ذلك على قاعدة اساسية وهى أن من لا ماضى له لا مستقبل له ، وانه بالتعاون على احياء التراث العربى نستطيع أن نخدم الحقيقة ، ونخدم الاسقية ، ونخدم الشرق العربى بان نخرجه من حالة الاعتماد على غيره لبدأ عصرا جديدا هو عصر الحرية والتور والتضامن مع سائر الانسانية فى سبيل خير الانسانية^(٥).

وبعد أن تكون حزب الأحرار الدستوريين فى عام ١٩٢٢ وقع الاختيار على الدكتور هيكل ليراس جريدة السياسة لسان حال الحزب فشارك فيها بجهوده ، كما كان يحرص على كتابه المقال السياسى بها والذي تعرض فيه للحياة السياسية فى مصر ، ورصد التطور الذى اصاب المجتمع المصرى نتيجة احتكاكه بأوروبا وما صاحب ذلك من تطور فى شتى مناحى الحياة.

ومنذ ذلك الوقت ودع هيكل المحاماة ، وقصر بقية حياته على الصحافة والسياسة والتأليف ، وظل ريسا لتحرير السياسة حتى بعد ان تحولت إلى اسبوعيه فى عام ١٩٢٦ واصبحت وبحق مدرسة جامعة لنشر الأبحاث السياسية والأدبية . وبها نشر هيكل كتبه " حياة مجد " فى عدة مقالات عام ١٩٣٥ وقد

-
- ١- الهلال : نوفمبر ١٩٣٦ ص ١١ - ١٤ مقال للدكتور هيكل بعنوان " الحرية ومنلولها الانسانى " .
 - ٢- السياسة فى ١٧ يناير ١٩٤٨ محاضرة للدكتور هيكل فى نادى الحزب تحت عنوان " الديمقراطية والنظام البرلمانى " .
 - ٣- هيكل : مفكرات فى السياسة المصرية ج ٢ ص ١٧ .
 - ٤- الهلال : مجلد ١٩٣٦ ص ٤٨٥ - ٤٨٨ مقال للدكتور هيكل بعنوان " اثر السياسة فى اخلاق المجتمع - السياسة تنهض باخلاق الامم القوية " .
 - ٥- الهلال : فى ابريل ١٩٣٥ .

اختير هيكل نائبا لرئيس حزب الاحرار الدستوريين فى عام ١٩٤١ كما أصبح رئيسا للحزب فى عام ١٩٤٣ وحتى تم الغاء الاحزاب فى اعتقاب ثورة ١٩٥٢ وخلال ذلك كان له دوره الطليعى فى إدارة دفة الحزب ، كما كان له وزنه فى توجيه السياسة المصرية فى فتره من اخرج مراحلها .
للدكتور هيكل مؤلفات عديدة نذكر منها كتابه " تراجم مصرية وغربية " الذى طبع بمطبعة السياسة فى عام ١٩٢٩ والذى يعد البدايات الأولى لكتابه السير والتراجم السياسية التى كانت تقتفر اليها المكتبة العربية فى ذلك الوقت .

وقد استطاع الدكتور هيكل أن يصور ببراعة الاشخاص المترجم لهم ، والعصور التى عاشوا فيها بطريقة واضحة المعالم متسقة الاجزاء شملت حلقات من التاريخ المصرى القديم والحديث كما شملت شخصيات من الغرب تركت بصمتها فى تاريخ الانسانية .

وعن الشخصيات المصرية التى ترجم لها فقد ترجم لكليوباترا آخر ملوك البطالمة فى مصر وتعرض لآثرها فى تاريخ مصر والامبراطورية الرومانية وترجم للخديو اسماعيل الذى تعرضت مصر على عهده للكثير من التطورات والأزمات ، ولمصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ولقاسم أمين نصير المرأة ، ولبطرس غالى الذى كان اغتياله نذيرا بالعديد من المشاكل التى كادت أن تعرض مصر للخطر ، ولقدرى باشا صاحب المؤلفات الشرعية والذى له أكبر الأثر فى تقنين احكام الشرع فى المعاملات والاقواق والاحوال الشخصية ولإسماعيل صبرى الذى يعتبر شعره على قلته آية فى الجمال الذى تتهنز له النفوس ولثروت باشا رئيس وزراء مصر

والشء اللافت للنظر والداعى الى الاستغراب أن الدكتور هيكل لم يشمل كتابه على ترجمة لسعد زغلول أو لرشدى باشا على الرغم من دور كل منهما المؤثر فى تاريخ مصر ،
والى جانب ذلك فقد انتقد هيكل مصطفى كامل وجريدة اللواء واتهمها بالتخلف لعدم مناصرة قاسم امين فى آرائه الاجتماعية وأرجع ذلك إلى رغبة مصطفى كامل فى تملق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية ، وبأنه بزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحويه .

وعن الشخصيات الغربية التى تعرض لها الكتاب فقد اشتملت على تراجم لبيتهوفن الموسيقى الالمانى البارح وتين الناقد ، وشكسبير وشيللى الشاعرين مما يوضح تمكن الدكتور هيكل من الآداب الغربية بالإضافة الى مقدرته الفائقة فى الموازنة والاستنتاج .

وهكذا تغلغل الدكتور هيكل فى روح المترجم وعصره واستطاع أن يستبدل قلمه بريشه المصور واصباغه وقماشه وخطوطه حتى اخرج لنا صورا بارعه كشفت ماكان خافيا علينا من أمور ، وفى يقيننا انه لا يستطيع القيام بهذا العمل الا من له قدرات راسخه فى علمى النفس والتاريخ وفى الاداب أيضا .
وظل الدكتور هيكل يواصل نشاطه حتى توفاه الله فى الثامن من ديسمبر ١٩٥٦ .



د. محمد حسين هيكل

محمد طلعت حرب

زعيم مصر الاقتصادي

إن حياة طلعت حرب تعد جزءاً من تاريخ مصر الحديث ، فقد وهب نفسه لهذا الوطن وكان رجلاً اتسعت همته لأمال وطنه ، فكان سابقاً على عصره وكان قلبه مسكوناً بحب مصر ، وطنيته كانت وطنية العمل لا وطنية القول ، وطنية البناء لا وطنية الهدم . نقل مصر من الاقتصاد الفردي إلى الاقتصاد الذي تديره شركات ومن المشروعات الاقتصادية التي يديرها أجناب إلى مشروعات وطنية ومن الورش الصناعية الصغيرة إلى المصانع الكبيرة مثل مصانع المحلّة الكبرى وغيرها ، ومن القول أن مصر بلد زراعي لا تصلح للصناعة إلى أهمية وجود صناعة وطنية وإلى عدم الاعتماد على محصول واحد.

ولد عام ١٨٦٧ في قصر الشوق بالجمالية وتخرج من مدرسة الخديوية عام ١٨٨٩ وعمل بقلم القضايا بالدائرة السنية خلفاً لمحمد فريد ، ثم بالشركة العقارية المصرية

كان وطنياً غيوراً على مستقبل بلاده الذي استقبل فيه النفوذ الأجنبي خاصة بعد أن ارهقت الامتيازات الأجنبية كاهله في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولجأت مصر إلى الاستدانة من البنك الأوروبية.

ونتيجة لفشل الخديو اسماعيل في تسديد ديون مصر تدخلت الدول الأوروبية في شئون البلاد بحجة المحافظة على أموال رعاياها فأرسلت بريطانيا بعثة برئاسة الخبير المالي كيف " Cave " لدراسة أحوال مصر المالية.

وقد اقترحت هذه البعثة وضع الحكومة المصرية تحت المشورة الأوروبية وفي محاولة من فرنسا لمسايرة إنجلترا في ذلك المجال وافق الخديو على إنشاء صندوق الدين بهدف جمع المبالغ المخصصة للديون من المصالح الحكومية ، وتسديد أقساطها وما يستحق عليها من فوائد .

ونتيجة لعدم اقتناع الدول صاحبة الديون بهذه الإجراءات تشكلت لجنة مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة أطلق عليها بعثة " جوشن وجوبيير " كما اضطر الخديو للموافقة على تعيين وزيرين أوروبيين في الوزارة أحدهما للمالية والآخر للاشغال.

وفي محاولة لوقف انهيار البلاد الاقتصادي اجتمع بعض كبار التجار المصريين في ابريل ١٨٧٩ في محاولة لتخليص الوطن من أسر الديون بافتتاح بنك وطني يكون رأسماله أربعة عشر مليوناً من الجنيهات تجمع من سائر أبناء الأمة على أقساط ، وقد تقدم هؤلاء إلى الحكومة بمذكرة تفسيرية عن هذا البنك ذكروا

فيها ان ادارة البنك ستكون ادارة وطنية ، ولكن هذه الفكرة سرعان ما خمدت نتيجة للأحتلال البريطاني لمصر فى عام ١٨٨٢^(١) ، وقيام الانجليز بوضع نظام مالى يكفل سداد اقساط الديون على حساب حاجات الشعب ، وسيطرتهم على مالية الدولة وتأسيسهم البنوك الاجنبية وشركات الرهون العقارية والشركات المالية والزراعية وغيرها^(٢).

وهكذا ظلت مرافق مصر الاقتصادية والمالية ، فى حالة تبعية للانجليز وأتباعهم الى أن دعا طلعت حرب الى انشاء بنك مصر فى اعقاب الحرب العالمية الأولى^(٣).

وبعد قيام ثورة ١٩١٩ ، تطلع الشعب المصرى الى الاستقلال الاقتصادى الى جانب الجهاد فى سبيل الاستقلال السياسى وكان من نتائج ذلك أن لقيت دعوة طلعت حرب الى تأسيس بنك مصر تأييدا وتعضيدا من طبقات الشعب فى العواصم والاقاليم حتى تكلفت دعوته بالنجاح^(٤) واصبح اسمه مقرونا بينك مصر فاذا قلت طلعت حرب فقد قلت بنك مصر والعكس صحيح.

فقد صدر المرسوم بتأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى بنك مصر فى عهد وزارة يوسف باشا وهيه فى ١٣ من ابريل ١٩٢٠ أى بعد مضى حوالى عام على ثورة ١٩١٩ ، وتم عقد الشركة بين ثمانية من ذوى الاملاك من المصريين منهم المسلم ومنهم القبطى ومنهم اليهودى فيوسف اصلان كان يهوديا واسكندر مسيحه نصرانيا واحمد مدحت يكن ، ومحمد طلعت حرب ، وعبد العظيم المصرى وعبد الحميد السيوفى وفواد سلطان وعباس بسيونى كانوا من المسلمين^(٥).

وقد اتفق الموقعون على تأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى "بنك مصر" ويكون مركزها القاهرة بهدف القيام بالاعمال البنكية.

-
- ١- عبد المنعم الجميى : مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٣٨.
 - ٢- الراقى : مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ١٨٤-١٨٨.
 - ٣- انور الجندى : اعلام واصحاب اقليم ص ٢٠٣-٢١١.
 - ٤- الراقى : فى اعقاب الثورة ج ٢ ص ٣٠٣.
 - ٥- وقد استمر هذا التقليد قانما بعد ذلك فالمليون اليهود كانوا اعضاء بمجلس الادارة ممثلين فى اكثر من شخص كاصلان قطاوى ، وشيكوريل كانا من اليهود ، وتوفيق دوس ، وصادق قلبنى كانا من النصارى ومن اقرب الناس الى طلعت حرب.

وقد بدأ رأسمال الشركة بثماتين الف جنيهه مصرى موزعة على عشرين ألف سهم بمعنى ثمن السهم أربعة جنيهات ، واشترط فى عقد تأسيسه ان يكون حمله أسهمه من المصريين مما كفل له الصفة القومية . وجاء فى عقد التأسيس أن مدة هذه الشركة خمسون عاما ، وان يقوم بإدارتها مجلس ادارة مكون من تسعة اعضاء على الأقل ومن خمسة عشر عضوا على الأكثر تنتدبهم الجمعية العمومية ، وانه بوجه الاستثناء يتم تعيين المؤسسون اعضاء بالمجلس الأول ، وتولى احمد مدحت يكن باشا رئاسة مجلس الادارة منذ نشأة البنك حتى عام ١٩٤٠ ، كما عين طلعت حرب نائبا للرئيس (٦) وقد أعلن طلعت حرب فى خطاب افتتاح البنك فى السابع من مايو ١٩٢٠ ان بنك مصر سيعمل على تنظيم الحالة التجارية وانشاء الغرف التجارية ، وترقية التجارة والصناعة واقامة صرح مصرى صناعى ، وان المصريين أرادوا ان يكون لهم بنك يعمل عمل البنوك الاجنبية ويخدم مصر ويضع يده فى يد كل ناهض بمصر الى الامام .

وهكذا ولد بنك مصر كثمرة اقتصادية لثورة ١٩١٩ وكان ميلاده البداية الحقيقية لميلاد الراسمالية الوطنية المصرية كما كان نجاح رسالته امتحانا قاسيا لكفاءة المصريين ومدى مقدرتهم وتمسكهم بحقوقهم وغيرتهم على واجبهم ، وكان المصريون امام امتحان عسير يمثل الدفاع عن كرامتهم وسمعتهم كشعب يابى الاستغلال الاقتصادى ولم يكن الموقف مقصورا على ١٢٦ مصرى الذين اشترؤا أسهم بنك مصر ودفعوا ثمانين الف جنيهه رأسمال البنك عند انشائه ، بل كان صمود البنك صمودا لإرادة الشعب المصرى على التحدى وقد صمد البنك ، وبدد اسطورة ان مصر بلدا زراعى ولا يمكن ان تنجح فيه صناعة ، كما صمد حتى تزايد رأسماله الى مليون جنيهه فى عام ١٩٢٧ ، ثم الى ملايين من الجنيهات بعد ذلك وظل هذا البنك بنكا وطنيا بكل معانى الكلمة فاخذ يودى رسالته ويتدرج فى سبيل التقدم والنمو ، فانشأ فروعا له فى معظم المدن المصرية الهامة وتضاعف رأسماله والى جانب ذلك فقد صار بنك مصر الى جانب اعماله المصرفية النواة الاقتصادية والمالية لنهضة الصناعات الوطنية .

فقد انشأ عدة شركات مصرية ، وكان لها بمثابة اداة التوجيه والتمويل . نذكر منها شركة مصر لغزل . سيج القطن بالمحلة عام ١٩٢٧ والتي تعد اهم عمل صناعى قام به بنك مصر حيث قام باحياء صناعة الغزل . سيج بالمحلة بانشائه للمصانع الكبرى بها والتي تعد الابنة البكر لهذا البنك كما كانت أكثر شركات بنك مصر نجاحا واعظمها أثرا واكثرها اتساقا مع الاقتصاد القومى الذى يقوم أساسا على القطن (٧) والى جانب ذلك فقد انشأ بنك مصر شركة مصر لغزل ونسج القطن بكفر الدوار فى

٦- محمود متولى : الاحوال التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها ص ١٨١ - ١٨٢ .

٧- طلعت حرب : بحث فى العظمة ص ١٣٩ .

عام ١٩٣٨ ووجد من الفلاحين الطلائع الاولى للعمل بصناعة هذه الشركة ، مما ادى للعديد من الخدمات الهائلة للمستهلك المصري يضاف الى ذلك ان بنك مصر انشا العديد من الشركات التي احييت صناعات مصرية عديدة وحررت جانبا مهما من الاقتصاد المصري من التبعية الاجنبية منها شركة مطبعة مصر . وشركة مصر للنقل والملاحة النهرية ، وشركة مصر للتمثيل والسينما التي تبنائها طلعت حرب رغبة منه . في تمصير هذه الصناعة ، والتي تم افتتاحها عام ١٩٢٧ ، والتي قامت بتأسيس ستوديو مصر ، كما قامت ببناء مسرح الازبكية التي كان يعد ثاني مسرح بنى للتمثيل بعد مسرح الأوبرا . والشركة المصرية لصناعة الورق . والشركة المصرية لمصايد الاسماك ، وشركة مصر للسياحة وغيرها فضلا على ذلك فتد انشا طلعت حرب شركة مصر للطيران والتي ارتفع من خلالها علم مصر واسمها في الجو ، وتمكن المصريون من ركوب الطائرات لأول مرة.

وقد شجع نجاح هذه المنشآت المصريين على استثمار أموالهم في الصناعة والتجارة ، وصارت الى جانب بنك مصر الذي علم الالوف من المصريين العمل المصرفي صارت مدارس لتعليم المصريين كيفية ممارسة شئونهم المالية والاقتصادية وحررت عقولهم الادارية من رقبة الروتين الحكومي (٨) .

وعلى الرغم من حملات النقد والتشكيك المتكررة ضد البنك فقد ادت معظم شركاته خدمات هائلة للمصريين خاصة في فترة الحرب الثانية خاصة بعد ان اضطرر انتاجها وأصبح قادرا على المنافسة الاجنبية . وفيما يلي نعرض لمبادئ واهداف البنك وسياسته الاقتصادية

تمصير الاعمال المصرفية : اقتصار ملكية الاسهم على المصريين مكنت البنك من خدمة المصالح

الاقتصادية الوطنية

نشر الوعي المصرفي وتجميع المدخرات الوطنية

- استعمال اللغة العربية في معاملاته.

- فتح مجالات امام المصريين من حيث نوع العمل والخبرة المصرفية .

- تجميع المدخرات الوطنية ووضعها في خدمة المشروعات الاقتصادية المصرية شجع الكثيرين من

المصريين المكتئبين الذين كانوا يرفضون الحصول على الفائدة خشية ان يكون لها صفة الربا.

- لم يتردد البنك في الاستفادة من المميزات الاجنبية فاستدعى الكثيرين من الخبراء الاوربيين

لدراسة مشروع غزل القطن ونسجه ، وشركة الطيران المدني ومع ذلك كانت الافضلية للمصريين



٨- الجدير بالذكر ان مصر شهدت في اعقاب ثورة ١٩١٩ ظهور بنك التسليف الزراعي الذي اسس في عام ١٩٢١

وتفرع منه بنك التسليف العقاري ١٩٣٢.

وقد استطاع البنك في فترة لا تزيد عن العشرين عاما ان يقدم لمصر عددا من المشروعات بلغت في عام ١٩٤٠ تسعة عشر مشروعا بالاضافة الى بنك مصر - لبنان .

لقد تبين لطلعت حرب بحاسة الاقتصادية والسياسي معا أن البلاد العربية وحدة اقتصادية بقدر ماهي وحدة ثقافية ، وانه عن طريق ذلك يمكن تحقيق وحدة عربية وان بنك مصر يستطيع ان يفعل في هذا المجال الكثير وكان لتتابع زيارات طلعت حرب لسورية ١٩٢٥ والحجاز ١٩٣٠ والسودان ١٩٣٨ اثره في اختار الفكرة فنشا بنك مصر سوريا - لبنان ثم كانت أعمال بنك مصر الكثيرة في الحجاز بشراء البواخر كوثر وزرم واعدادها لنقل الحجاج ، كما كان لسفر طلعت حرب الى السعودية بدعوة من الملك عبد العزيز اكبر الاثر في ازالة الفجوة مع الملك فواد

والى جانب دور طلعت حرب في بناء الاقتصاد المصري الحديث فقد كان مفكرا وكاتبا متميزا فله العديد من الكتب نذكر منها كتاب " تاريخ دول العالم والاسلام " ، وكتاب " تربية المرأة والحجاب " ردا على كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين ، وكتاب " فصل الخطاب في المرأة والحجاب " وكتاب " علاج مصر الاقتصادي وانشاء بنك للمصريين " كما وقف ضد مشروع امتياز قناة السويس الذي رأى الانجليز اضافة مدد اربعين عاما مقابل اربعة ملايين من الجنيهات.

ازمة بنك مصر ١٩٣٩

في اواخر اغسطس ١٩٣٩ اضطربت الحالة الدولية لظهور بوادر الحرب الثانية مما ترتب عليه زيادة الطلب على السحب للودائع من البنوك . وقد تعرض بنك مصر كغيره من البنوك لهذا التهافت على الودائع مما ادى الى عجز في السيولة النقدية للبنك . وبدا موقف البنك يتأرجح حتى تدخلت الحكومة في عام ١٩٤١ لوقف السحب وضم الودائع في البنك واشترطت اقضاء طلعت حرب عنه.

ومما سبق يتضح ان اسم طلعت حرب اقترن في التاريخ باكبر آثاره وهو بنك مصر الذي انشئ تعبيرا عن فكرة وطنية ودون اعتماد على حكومة او حزب ، بل كان اول بنك مصري يقوم على اكتتاب الشعب نفسه بلا معونة او اشراف من الحكومة .

وعلى الرغم من حملات النقد والتشكيك في مقدره هذا البنك على مواجهه الواقع فقد بقى صامدا وسركدا مقدره الانسان المصري على تحدى الصعاب ، يقود طليعة حركة الاعمار والتشييد في العديد من المجالات وظل طلعت حرب يواجه التحديات حتى توفاه الله في الثاني عشر من اغسطس ١٩٤١ .

وهكذا كان بنك مصر وشركاته منشأة قومية بكل ما تعنيه هذه الكلمة . فكان دعامة للتحرر الاقتصادي ولسه من نبات بناء مصر الحديث.

محمد شفيق غريال - سيرة وتحيّة

(١٨٩٤-١٩٦١)

* د. عبد المنعم الجميعي

كان عالما فذا رزقه الله من حب العلم، والانصراف إلى البحث والتحصيل، وعشق المعرفة، وتقدير جهود العلماء، وسعة الأفق وسماحة الخلق ما جعله بين أفراد جيله ملء السمع والبصر والفؤاد. وكان من القلائد الذين أسسوا لأنفسهم مدرسة خاصة في البحث العلمي تحمل طابعه وتسير على منهاجه. وكان المعلم الأول الذي تلقن شباب الجيل الماضي دروسهم الأولى في التاريخ القومي والوطني فكان اهتمامه بتاريخ مصر الحديث الباب الرئيسي الذي نفذ منه إلى تاريخ العرب.

لقد كانت له فلسفة في التاريخ، وكان محبا للحقيقة، حرا في تصويرها وكان رفيقا في نقده، مرحبا به إذا وجه إليه، وكان متواضعا، سخيا بعلمه وجود به على من يقصده.

قال عنه أستاذه "ارنولد توينبي" "إن الطلاب الموهوبين لا يتعلمون من أستاذهم، فهو لا يتذكر أنه علم شفيق غريال شيئا، بل انه يتذكر أنه تعلم من غريال شيئا كثيرا ذلك أنه في الدراسات العليا يشترك كل من الأستاذ والطالب في تعليم كل منهما الآخر".

ولد محمد شفيق غريال في حي غريال الممتد على ضفاف ترعة المحمودية في الإسكندرية في عام ١٨٩٤، ونشأ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارسها، ثم أختار الالتحاق بمدرسة المعلمين الخديوية العليا بالقاهرة حيث وجد فيها كما يذكر- المعهد الذي يصله بالدراسات الإنسانيّة، وتخرج فيها عام ١٩١٥ ثم أوفدته الحكومة المصرية في بعثة دراسية لدراسة التاريخ الحديث بجامعة "يفريول" بإنجلترا إبان الحرب العالمية الأولى.

ومع فداحة الأخطار التي كان يتعرض لها العالم في خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من مصاعب السفر خلال تلك الأونة، فإن غريال لم يتردد في الذهاب إلى إنجلترا ليواصل دراسته للتاريخ هناك. وقد استطاع أن يثبت مقدراته فحصل على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف في عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسا بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لمدة ثلاث سنوات أوفد بعدها مرة أخرى إلى إنجلترا للحصول على درجة الماجستير بجامعة لندن ثم بمعهد البحوث التاريخية التابع لهذه الجامعة. وخلال ذلك التقى بالمؤرخ الإنجليزي الشهير "ارنولد توينبي" الذي كان يشرف على بحوث الدراسات العليا هناك ويذكر "توينبي" أنه منذ لقائه الأول به وجد فيه طالبا موهوبا وانه تنبأ بأنه سيكون في

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الفيوم

مستقبل حياته باحثاً متميزاً، كما تنبأ له بمسلكه الأخلاقي الذي تميز به، وبكونه موضوعي التفكير، مستقلاً في الرأي ذا حزم وعزم فيما يتصل بالعمل الذي يتناوله⁽²⁾.

ومن المعروف أن "توينبي" أشرف على رسالة غربال للماجستير التي حصل عليها في عام ١٩٢٤ وكانت

بعنوان:

The beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali

ويعد أن عاد غربال إلى مصر في عام ١٩٢٥ عين مدرسا للتاريخ الحديث بمدرسة المعلمين العليا، وهناك بدأ في تدريس تاريخ الحضارة الإسلامية والكتابة في هذا المجال فكتب فصلاً بالإنجليزية عنوانه "الأراء والحركات في التاريخ الإسلامي"

Ideas Movements in Islamic History

ثم نقل غربال أستاذاً في تاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية في عام ١٩٢٩ ثم ما لبث أن رقي بها أستاذاً للتاريخ الحديث عام . . . فكان بذلك أول مصري يتولى هذا المنصب بالجامعة خلفاً للمؤرخ الإنجليزي "جرانت". ومن هنا بدأ غربال بشق طريقاً "جديداً" في الدراسات التاريخية المصرية، وفي نقل الإشراف على هذه الدراسات من يد القصر الملكي والمؤرخين الأجانب إلى يد الجامعة فبدأ في تكوين المدرسة التاريخية المصرية، من الدراسات الخاصة بالتاريخ المصري . . . وخاصة بعد إنشاء الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه بالجامعة، وإشرافه وتوجيهه للبحوث التاريخية.

وقد تمكن غربال بفضل مقدرته العلمية . . . قوة تأثيره على طلابه، أن تكون له الريادة الفكرية للمدرسة التاريخية فأقبل عليه تلاميذه بشغف، وأخذ يمنحهم من علمه وفكره ما ينير لهم السبيل دون أن يرضن على أحد منهم بما يعلمه أو يصُد عن بابه طالب علم. فدفع ذلك تلاميذه إلى السعي للحاق به والسمو إلى قرب قمته عن طريق الحرص على الإجابة وتوخي الدقة⁽³⁾.

ولم تقتصر جهود غربال في الجامعة على الناحية العلمية بل تعدتها إلى نواحي النشاط الاجتماعي حين صار وكيلاً للاتحاد العام لطلاب الجامعة المصرية⁽⁴⁾ وبذلك كان لغربال فضل عظيم في توجيه أجيال متعاقبة من تلاميذه الذين أخلصوا له الإجلال والتقدير، وامتد فضله عن طريقهم إلى العديد من أبناء هذه الأمة⁽⁵⁾.

١ - من كلمة الأستاذ ارولد توينبي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة أثناء تأبين غربال.

٢ - المجلة التاريخية المصرية: المجلد التاسع عشر ١٩٧٢ مقال للدكتور أحمد عزت عبد الكريم تحت عنوان محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة ص ٢٦.

٣ - منكرة مقدمة من كلية الآداب جامعة القاهرة بترشيح الأستاذ غربال لجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٠

٤ - من كلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد في مجمع اللغة العربية خلال حفل تأبين الأستاذ غربال.

أما عن الرسائل العلمية التي أشرف عليها غربال فهي متعددة، وقد ارتبط معظمها بالعصر العثماني وعصر محمد علي. ويرجع ذلك إلى أنه بسبب إهمال مؤرخين دراسة هذه الفترة في ذلك الوقت دعا غربال طلابه إلى الاهتمام بدراسة التاريخ العثماني باعتباره مدخلا لدراسة التاريخ المصري الحديث، ووجههم كذلك إلى الاهتمام بدراسة تاريخ القرن التاسع عشر بصفة عامة وعصر محمد علي بصفة خاصة نظرا لأن نبض الحياة المصرية قد اشدت في ذلك العصر، وكانت التطورات السريعة والمتلاحقة التي وقعت بمصر خلاله قد أحدثت فيها ما يشبه الثورة في كافة مناحي الحياة. نتيجة لذلك خرج على يد غربال العديد من الدراسات الأكاديمية في هذه الموضوعات نذكر منها الدراستين اللتين قدمهما محمد رفعت رمضان ونال بهما درجتي الماجستير والدكتوراه وهما "ثورة علي بك الكبير" و"مصر والدولة العثمانية دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين الطرفين من ١٨٥٠-١٨٦٣" والدراسة التي قدمها حسن عثمان للمجستير تحت عنوان "فخر الدين بن معن الثاني أمير لبنان" والدراستين اللتين أعدهما أحمد الحته للمجستير والدكتوراه "الفلاح المصري في عهد محمد علي" و"تطور الزراعة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر" والدراستين اللتين قدمهما أحمد عزت عبد الكريم ونال بهما الماجستير والدكتوراه وهما "تاريخ التعليم في عصر محمد علي" و"تاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل حكم توفيق" والدراسة التي أعدها أبو الفتوح رضوان للمجستير وعنوانها "تاريخ مطبعة بولاق" والدراسة التي قدمها محمد محمد توفيق للمجستير تحت عنوان "مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر" والدراسة التي أعدها فائق جبره للمجستير تحت عنوان "ضرائب الأطنان المصرية في عهد محمد علي" والدراسة التي قدمها أمين عفيفي للدكتوراه بعنوان "تجارة مصر في عهد محمد علي" والدراسة التي قدمها عياد دوس للمجستير بعنوان "الفتح المصري للسودان في عهد محمد علي" والدراسة التي قدمها عبد العزيز الشناوي للمجستير تحت عنوان "السخرة في حفر قناة السويس".

ولغربال مؤلفات ليس بالكثيرة ولا بالضخمة، ولكن ما كتبه يقترن دائما باسمه خصوصا وأنه كان يرى من الحقائق ما لا يراه غيره، إذ كتب تاريخا صاغه في لفظ أنيق فيه فطانة، ويُعد نظره، وحسن إدراكه مع دعاية لطيفة تجعل من يقرأ له يحس أنه ليس مع مؤرخ أو فيلسوف وإنما مع فقيه من فقهاء التاريخ^(١).

ومن أبرز مؤلفات غربال رسالته للمجستير "بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي"^(٢) والتي تعد حدثا علميا إستعري أنظار الأساتذة والباحثين، خاصة لأنها اتسمت باستقراء الأحداث، والفحص العلمي، والمقارنات، والناحية التحليلية، وكثرة المصادر والأسانيد كما اتسمت بالحياد في تقويم الأشخاص والبعد عن التحامل والعواطف.

وقد استطاع غربال في هذه الدراسة تناول التطورات السياسية في مصر منذ الحملة الفرنسية حتى وصول محمد علي إلى الباشوية، واثبت أن المسألة المصرية كانت جزءا هاما من المسألة الشرقية، وأنه لا يمكن فهم هذه

^١ - حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ ص ٢٠٤.

^٢ - كتبت هذه الدراسة بالإنجليزية ولم تترجم بعد.

المسألة إلا إذا ربطنا بينها وبين ما كان يجري في الدولة العثمانية وأوروبا، وهي الطريقة التي سار عليها أستاذه توينب في مؤلفته، وهي أنه لا يمكن للباحث أن يدرك كنه حقيقة تاريخ أمه من الأمم إذا هو قصر بحثه على تاريخ هذه الأم واكتفى بتتبع الحوادث التي وقعت فيها وحدها خصوصا وأن حوادث العالم متشابكة فلا تقع حادثة في بلد من البلدان ! امتدت آثارها إلى البلدان الأخرى بدرجات متفاوتة قد تكون قوية أحيانا، وغير مؤثرة في أحيان أخرى.

وتظل هذه الفترة بالذات محور اهتمام غربال ففي عام ١٩٣٢ كتب بحثا بعنوان "الجنرال يعقوب والفار. لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١" اهتم فيه بدراسة شخصيتين هما المعلم يعقوب حنا أو الجنر المصري يعقوب والفارس الإيطالي لاسكاريس.

والمعروف أن الجنرال يعقوب دخل في خدمة الفرنسيين، وقد أشار إليه الجبرتي أكثر من مرة في كتابه "مظهر للتقديس بزوال دولة الفرنسيين" و"عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ذاكرا مساعده لقيادة الحملة، وقيا بتأليف فرقه من الأقباط وإنشاء قلعة لها في الأزيكية.

لما الفارس لاسكاريس فهو نبيل إيطالي، دخل في ملك فرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقر ليه وحضر مع بونابرت إلى مصر، وتقلد بعض المناصب الإدارية، وكان يرى أن مصر جديرة بالاستقلال عن الدو العثمانية بحكم موقعها وتاريخها ومواردها.

وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر تبعها الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس للسعي لدى الحكوم الأوروبية لتحقيق استقلال مصر، ولكن يعقوب وافته المنية في الطريق، وكان نصيب مسعاه الإهمال.

ولا جدال في أن الأستاذ غربال قد نجح في تمحيص كل ما كتب في هذا الموضوع، وبذل جهدا في ترج الوثائق التي كتبها لاسكاريس وبذلك قدم بما كتبه خدمة للتاريخ المصري، وألقى شعاعا على أول رؤية حقيقية لاستقلا مصر عن الدولة العثمانية.

وفي الثلاثينات من هذا القرن نشر غربال دراسة تحت عنوان "مصر عند مفترق الطرق - رسالة حسين أفنه الروزنامجي" وتشتمل هذه الدراسة على تحقيق مخطوط بعنوان "ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية - شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامه في مصر العثمانية" وهو عبارة عن أسئلة موجهة إلى "المسيو مستيف" مد مالية مصر - خلال الحملة الفرنسية - إلى حسين أفندي حول أحوال الفلاحة في مصر ونظام الالتزام والضرائد وبعض النواحي المالية، وإجابات حسين أفندي عليها^(٨).

وقد مهدت دراسة هذا المخطوط الطريق لكل من تصدى لتاريخ الدولة العثمانية بالدراسة، وأكدت أن شق غربال كان محققا من الطراز الأول خاصة وأنه أضاف إلى المخطوط من الشروح والتعليقات ما أوضح فهم غر الصادق لحقائق التاريخ المصري، وإيمانه بدور مصر الحضاري.

٨ - مجلة كلية الآداب: المجلد الرابع ج١- مايو ١٩٣٦ ص ١-٧١

ويستمر غربال في دراسته عن هذه الفترة فيخرج كتابا بعنوان "محمد علي الكبير"^(١)، وفيه وصف المناخ، وكانت تعيشه مصر قبيل عصر محمد علي، ونجاح محمد علي في إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة إطار واحد، وقيامه بحركات إصلاحية وعمرانية واسعة في شتى المناحي حتى عادت مصر كما كانت مهدا نارية، كما وصف الصفوة المثقفة التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا لدراسة العلوم الحديثة، وعادت إلى مصر يبق العلم على العمل بأنها ساعدت في النهوض بالزراعة والصناعة وبناء الجيش والأسطول، وأخذت عبقريتها تدب جسم مصر وروحها كما تدب الخميرة في العجين، وأوضح أن ما قام به محمد علي من إصلاحات فاق ما كان يقوم لفرنسيون لو أمئت حكمهم في مصر، ثم أرجع نجاح محمد علي في إصلاحاته، وفشل السلطان العثماني محمود الثاني الإصلاحات التي قام بها في تركيا إلى أن محمد علي كان يعتمد على ثلاثة أسس وهي القوة والعلم والمال في حين يد السلطان العثماني على القوة العسكرية وحدها.

أما عن مساوئ السخرة والاحتكار وقصر المناصب العليا على الأرستقراطية العثمانية وغيرها فقد بررها بال بأنه كان لا بد من التضحية بجيل أو جيلين في سبيل بناء حكومة قوية ومعمره في مصر.

أما عن مواقف محمد علي من السلطنة العثمانية وأوروبا فقد تمكن غربال بفضل اتساع ثقافته، وتمكنه من يب الكتابة التاريخية إلى ربط تاريخ محمد علي بالأوضاع العامة في الدولة العثمانية وأوروبا، وطبيعة المؤامرات لية التي أحاطت به، كما رأى أن محمد علي وهو قائد عثماني مسلم كان لا بد له من مساعدة الخليفة العثماني على لاح دار الإسلام وعلى الإحتفاظ بها مصونه ضد غزوات اعداء الإسلام وأنه ظل على إيمانه بهذا الموقف حتى فقد بالسلطان بعد صلح كوتاهيه في عام ١٨٣٣، وبدأ يفكر في الانفصال عن الدولة العثمانية، وإعلان استقلال ما ي "عربستان" أي البلاد العربية عنها، ولكنه كان يتردد في اتخاذ هذه الخطوة خشية ما يترتب عليها من المحاذير.

وعند تحليلنا لما كتبه غربال عن محمد علي نجد أنه تأثر تأثيرا واضحا بأستاذه "توينبي" في إيمانه بدور قوة المبدعة في مجالات النشاط البشري، وبنظريته عن فكرة التحدي والاستجابة Challenge and Response تطرق إلى معالجة العلاقات بين الشرق والغرب. يضاف إلى ذلك أنه دافع عن كل أعمال محمد علي وإنجازاته، حين أن هناك العديد من المآخذ على محمد علي وبعض أعماله التي كان يجب عليه توضيحها لا تبريرها. وإلى ب ذلك نجد للأستاذ غربال دراسة قيمة تحت عنوان "تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية - بحث في العلاقات رية البريطانية من الإحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢-١٩٣٦"^(١٠) وهو كما يرى صاحبه في ته "محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث، والوقائع، والسياسات، والخطط، والبواعث والأغراض والأمانى حلام والشبهات التي تواللت على مصر، والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا".

نشر ضمن سلسلة أعلام الإسلام في عام ١٩٤٤ وأعدت دار الهلال نشره في أكتوبر ١٩٨٦.

نشرته مكتبته النهضة المصرية في مايو ١٩٥٢ وقبيل ثورة يوليو بشهرين.

ويلاحظ على هذا الكتاب بصفة عامة أنه بحث علمي مدعم بالوثائق والتحليلات العلمية البعيدة عن الذم والمعرضة بأسلوب مشوق جذاب.

وفي فصول هذا الكتاب تعرض غريبال للمفاوضات المصرية البريطانية بصفة عامة، وبين كيفية نشأتها، ورضي بها الإنجليز والمصريون بوصفها وسيلة لتحقيق الأمان، وصيانة المصالح. وتعرض للأحداث التي ساء المفاوضات، وقدم وصفا موجزا للسياسة العامة للاحتلال تجاه المصريين ثم تطرق إلى العلاقات المصرية البرية إبان الحرب العالمية الأولى بصورة مبدعة، ووصف المبررات التي استندت إليها إنجلترا كي تفرض حمايتها مصر، وموقف الزعماء المصريين من ذلك. كما تعرض المؤلف للتحفظات الأربعة التي صحبت انتهاء الحماة فيراير ١٩٢٢، وتوقف عند عقد معاهدة ١٩٣٦.

ومع أن كتاب الأستاذ غريبال يعتبر أثرا فريدا من نوعه من حيث الموضوع وطريقه عرضه، وتد بالوثائق، وكثرة التحليلات المدعمة بوجهات النظر المختلفة التي تؤكد فهم غريبال الصادق لحقائق التاريخ المصري مما يؤخذ على هذا الكتاب أن صاحبه لم يتعرض كثيرا للظروف الدولية العامة ذات التأثير المباشر في العا المصرية البريطانية وربما يكون قد أجل كتابة ذلك للجزء الثاني من الكتاب الذي كان يعتزم إصداره، ولكنه لم ير فقد توفي دون أن ينتهي من كتابته.

وعلى كل حال فإن لهذه الدراسة مغزى مهما وهي أنها كانت المحاولة الأولى من جانب غريبال للقضايا المعاصرة، والتعرض للحركة الوطنية المصرية بعد أن كان القرن التاسع عشر وحده يحتل مكان الصدارة اهتماماته.

وبعد أن قامت ثورة ١٩٥٢ ألقى غريبال عشرة أحاديث باللغة الإنجليزية في البرنامج الأوربي ب" المصرية في عام ١٩٥٤^(١١) عن تكوين مصر وفيها تحدث عن محبوبته ذات الأحرف الثلاثة وهي مصر فاوض "مصر هبة المصريين" لا هبة النيل كما قال هيردوت لأن النيل الذي تقع مصر على ضفتيه قد قطع آلاف الأميد أن يصل إلى مصر ومع ذلك فلا توجد غير مصر واحدة على طول مجراه، أقامها المصريون بكدهم وعرقهم، فه فلقوا الأرض وسقوها وزرعوها، وهم الذين أقاموا السود والعمران في شتى أرجائها، ولولا جهودهم هذه لتحول النيل إلى مستنقعات وأماكن خربة تنتشر منها الملاريا والأوبئة ومن هنا فإن البشر هم الذين صنعوا مصر، و البشر الذين فعلوا ذلك هم المصريون. كما أثبت غريبال في أحاديثه أيضا أن مصر مهد الحضارة التي تجمعت حو الأحداث، وأن موجات الغزاة التي وفدت إليها لم تستطع أن تفتت في عضدها أو تؤثر في شخصيتها.

^{١١} - أذيعت هذه الأحاديث بعد ذلك من محطات إنجليزية وأمريكية متعددة.

ونظرا لأهمية هذه الأحاديث فقد جمعت في كتاب صدر في القاهرة باللغة الإنجليزية في عام ١٩٥٥ ثم ترجم إلى برية، ونشرته وزارة الثقافة المصرية في عام ١٩٥٧، كما ترجمته "كارمن يرافو" الباحثة بقسم الدراسات السياسية لية الآداب جامعة مدريد إلى الأسبانية^(١٢).

أما عن آخر ما كتبه غربال فكان بعنوان "منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما ي عليه اليوم"، وقد بين فيه العوامل التاريخية التي أثرت في بناء الأمة العربية وحددها فيما يلي:

١. الأثر العثماني في الأمة العربية

٢. الغزو الأوربي وأثره في الأمة العربية

٣. التطور الداخلي للأمة العربية

وشرح كذلك ظروف وقوع العالم العربي تحت الحكم العثماني والظروف التي أدت إلى الغزو الأوربي للأقطار برية. والنتيجة التي خرج بها غربال من دراسته لهذا الموضوع تتلخص في أن عوامل التدافع والتصادم بين الأمة برية والقوى الغازية لها انجلت عن ظهور النهضة العربية الحديثة، وإلى جانب ذلك فإن لغربال جهودا كبيرة في بال الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبخاصة في مجال التوجيه والمراجعة والإشراف على نقل عدد من أمهات كتب التاريخية اللازمة لتتيف الجيل العربي، وإفادة الدارسين والباحثين. كما أن له العديد من البحوث والمقالات ريفية المنشورة في المجلات العلمية^(١٣)، وفي الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية^(١٤)، وفي تقديمه لكتب مبيده وأصدقائه فضلا على ذلك فله عدد كبير من الأحاديث الإذاعية في موضوعات تاريخية متنوعة منه ضوعات في التاريخ الإسلامي، وسلسلة أخرى عنوانها "العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج" لو جمعت في ورة مدونات لكانت تراثا ضخما من المؤلفات.

وبعد أن تعرضنا لمؤلفات غربال يتضح لنا مدى قدرته، وتمكنه من أصول فن التاريخ، وإدراكه لحقائق تاريخ ه، يضاف إلى ذلك أن كتاباته كانت تتحلى بالعمق ويتجلى فيها الموضوعية، وعدم إلقاء الأحكام جزافا، وانه وان كان تأثر بمدرسة "تويني" كثيرا فانه لم يخضع في كثير من الأحيان لفلسفة تاريخية معينة بل كان يأخذ من كل تفسير ر طبيعة الدراسة التي يتعرض لها والملابسات التي تحيط بها. وحينما يتعرض لإحدى القضايا الشائكة التي تتعد راء فيها كان في معظم الأحيان لا يفرض على القارئ رأيا بعينه بل كان يستشهد بأراء من تعرض لهذا الموضوع حث القارئ معه عما هو أقرب من الموضوعية، وأحيانا كان يبدي رأيه في همس هادئ أبعد ما يكون عن التكلف، قرب إلى اللمسات الفكهة الإنسانية المهدبة. وعلى كل حال لم تكن مؤلفات غربال ومصنفاته العلمية وحدها كل ما

- صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد: مدريد، المجلد الرابع عشر ١٩٦٧، ص ٤٧-٤٨.

- انظر على سبيل المثال مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، المجلد الثاني، العدد الأول، مايو، تحت عنوان أمير سوري في إيطاليا ١١١-١٦٦.

- انظر مادة (الترك) في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية.

قدمه بل لعل أهمها تلاميذه الذين تشرّبوا ثمرات فكره، ونبضات عقله فقد سألّه يوماً أحد الأجانب عن آخر مؤلفه وكان في مجلس العلم من تلاميذه فأشار إليهم قائلاً: هؤلاء هم كُتبي.

هذا عن غربال وجهوده المتعددة في المجالات التاريخية. أما عن أنشطته العلمية الأخرى والمناصب المنوّعة التي تولّاها فقد انتخب شفيق غربال وكيلاً لكلية الآداب فعميداً لها في مايو ١٩٣٩ وحتى مارس ١٩٤٠. وفي عام ١٩٤٠ نقل غربال من الجامعة إلى وزارة المعارف لبدء مرحلة جديدة في خدمة التربية والتعلّم وهي خدمة وطنية جليّة، وظلّ هناك حتى ديسمبر ١٩٤٢ يعمل وكيلاً مساعداً بالوزارة، ثم عاد إلى منصبه بالجاء لإدارة دفّة المدرسة التاريخية.

وفي يناير ١٩٤٥ نقل غربال إلى وزارة المعارف مستشاراً فنياً فوكيلاً لها إلى جانب تعيينه أستاذاً غير متفرغ بكلية الآداب في فبراير ١٩٤٩ وأتاح له ذلك الالتقاء بطلابه والاستمرار في مدرسته التاريخية ثم نقل وكيلاً لوزن الشؤون الاجتماعيّة لفترة أعيد بعدها إلى وزارة التربية والتعلّم حيث نهض بنصيب كبير في أعمال لجان المناهج بالوزارة^(١٥).

وخلال عمل غربال بوزارة التربية كان له دور بارز في حركة تمصير المقررات التاريخية بالمدارس، كانت الكتب الدراسية التي أسهم في وضعها بمثابة النواة التي اهتدى بضونها الطلاب والكتّاب من بعده. وإلى جانب ذلك لمس غربال عن قرب مشكلات المجتمع المصري والحياة المصرية بوجه عام. وقد قدم غر للدراسات التاريخية في مصر خدمات جليّة تمثلت في إنشاء "الجمعية المصرية للدراسات التاريخية" التي كانت تبايح ربيّته القريبة من قلبه. فقد سعى سعياً ملموساً من أجل إنشائها حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥ بإنشاء الجمعية، وصدر بعده أمر ملكي بتعيينه نائباً لرئيس الجمعية، واستمر الحال على ذلك حتى انتخب لمنصب الرئيس عام ١٩٥٦ وخلال ذلك أشرف شفيق غربال على إنشاء مكتبة الجمعية التي تدين له بالكثير من الفضل، وكانت من هذه المرحلة ترمي إلى اقتناء كل كتاب طيب يمكن اقتنائه، ثم عمل بعد ذلك على أن يكون لكل موضوع من الأساميّة فقام بتزويد المكتبة بمجموعات قيمة من الكتب والمراجع التي تعالج الكثير من القضايا التاريخية الهامة إلى جانب رئاسته لتحرير مجلة الجمعية السنوية، وإخراجه لمجموعة قيمة من مطبوعاتها. يضاف إلى ذلك أن غر غربال كان سابقاً إلى المساهمة في أنشطة الجمعية الثقافيّة فشارك فيها بمحاضراته التي كانت تتعدد أحياناً في المه الثقافي الواحد^(١٦).

^{١٥} - ظلّ غربال بوزارة التربية إلى أن أُحيل إلى التقاعد في عام ١٩٥٤ بعد أن بلغ السنتين.

^{١٦} - لتفاصيل ذلك انظر كتابنا الجمعية المصرية للدراسات التاريخية دراسة تاريخية لمؤسسة علمية، ص ١٤٧-١٥٢.

وإلى جانب ذلك عمل شفيق غريبال على بناء مكتاة مرموقة للجمعية بين مثيلاتها في العالم، وذلك عن طريق الاته العديدة بالمؤرخين الأجانب وحضور بعض مؤتمراتهم، ودعوة بعضهم لإلقاء محاضرات بالجمعية علاوة تشجيعه على نشر بعض البحوث بلغات أجنبية في مجلد خاص ومن مآثر غريبال أيضا إشرافه على إنشاء متحف سارة المصرية في عام ١٩٤٩ فقام بتوجيه لجانه المختلفة بأرائه وتحقيقاته كذلك مثل غريبال الحكومة المصرية في مؤتمرات تاريخية فقد ترأس وفد مصر إلى الجمعية العمومية لليونسكو في عام ١٩٤٨ وانتخب عضوا بالمجلس ذي لهذه الهيئة عدة سنوات فظل يمثل الشرق الأوسط لدى هذه المنظمة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥١. يضاف إلى أن هيئة اليونسكو اختارته في عام ١٩٥١ لعضوية لجنة من أثنى عشر مؤرخا من أبرز مؤرخي العالم ليكونوا شارين لها في شئون العالم وهو مشروع المؤلف الضخم الذي تكفلت به اليونسكو^(١٧).

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان غريبال عضوا بجمع اللغة العربية في الفترة بين عام ١٩٥٦ وسنه وفاته، كما كان ووا بالجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية، والمجلس الأعلى للآثار، ومركز تسجيل الآثار المصرية القديمة، سعية الآثار القبطية، ولجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ورئيس بية التاريخية للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.

هذا إلى جانب أنه رأس مجلس مديري الموسوعة العربية الميسرة فيما بين عامي ١٩٥٩-١٩٦١^(١٨).

وعلى الرغم من مشاغل غريبال في وظائفه التي استنفدت الكثير من وقته ظلت صلته بالدراسات التاريخية نمرة، واستمرت مدرسته التاريخية القائمة على حب البحث والتزام المنهج العلمي قائمة. وبعد تقاعده تولى منصب مدير معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية خلفا للأستاذ طع الحصري فبعث فيه الحركة والنشاط، ووثق علاقته بالهيئات العلمية والجامعية التي لم تعرف قبل غريبال أن ك معهدا بهذا الاسم، كما نهض المعهد في عهده نهضة علمية كبيرة.

يضاف إلى ذلك أن غريبال عمل على توجيه طلابه بالمعهد توجيهها علميا فأخذ يشرف على عدد كبير من مسائل التاريخية في المعهد تتناول تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر حتى خرجت على يديه موضوعات عن رب والترك (١٩٠٨-١٩١٦) و"تاريخ الوحدة العربية حتى عام ١٩٤٥" و"المسألة المراكشية ١٩٠٢-١٩١٢" اليمن في عهد الإمام يحيى ١٩١١-١٩٤٨" وغيرها.

وظل غريبال يشغل منصبه في هذا المعهد بجدارة وهمة حتى وفاته في ١٩ أكتوبر ١٩٦١ بعد مرض قصير لم يله إلا أياما فذهب إلى جوار ربه فيكاه أصدقائه وتلاميذه ومقدروا علمه وعارفوا فضلته^(١٩).

- المجلة التاريخية المصرية: المجلد الحادي عشر ١٩٦٢.

- مذكرة الجمعية التاريخية بشأن ترشيح الأستاذ غريبال لجائزة الدولة التقديرية ١٩٦٠.

ومما سبق يتضح أن شفيق غربال كان مؤرخا وعالما من الطراز الأول يستقرئ الحضارات كما يستقروا الوثائق والنصوص وأنه مصري أصيل عمل في تواضع ورحابة أفق على النهوض بالدراسات التاريخية فأر قواعدها، ووجهها التوجيه العلمي السليم، كما يتضح أن جهوده لم تقتصر على إنعاش الدراسات التاريخية في مصر تعداها إلى المشاركة في الحركة الفكرية بكل جوانبها وأبعادها ومما يحمد له أنه لم يتملق السراي الملكية رغم إعا بشخصية محمد علي، فكان يحق المثل الأعلى للأستاذ الجامعي الذي يحق لمصر أن تفخر به. وحسنا فعلت جا القاهرة وعين شمس عندما أطلقنا اسمه على مدرج في كليتي الآداب بهما.

أبرز رجالات الثورة العربية

١- أحمد عرابي

(١٨٤١-١٩١١م)

تنتهي أسرة أحمد عرابي إلى أصول عربية وفدت من العراق إلى مصر، فهو من نرية الإمام على الرضا، ومنتهيا بنسبه إلى الامام الحسين رضى الله عنه وقد ولد أحمد عرابي في قرية "هرية رزنة" بمديرية اللشرقية في ٣١ مارس ١٨٤١ وتلقى تعليمه المبكر في كتاب القرية ثم التحق بالأزهر وانخرط بعدها في سلك العسكرية في ديسمبر ١٨٤٥ بعد أن أمر سعيد باشا بانتظام ابناء العمد والمشايخ في سلك الجندية. وقد ترقى عرابي في مراتب الضباط سريعا في عهد سعيد باشا حتى وصل الى رتبة القانمقام. وخلال تلك الفترة استطاع عرابي تكوين افكاره السياسية الأولى التي تنحصر في ضرورة المساواة بين المصريين والشراكسة. وبعد ان تولى اسماعيل باشا الحكم تعرض عرابي للعديد من المكائد والمظالم خاصة في الضباط الشراكسة لدرجة أنه أحيل إلى وظيفة مدنية لفترة ولم تتم إعادته إلى صفوف الجهادية إلا خلال الاستعداد للحملة الحبشية فتم ارساله إلى الحبشة. وهناك شاهد الكوارث والهزائم التي تعرض لها الجيش المصرى نتيجة لعدم كفاية القادة الشراكسة. وازدادت الأزمات بعد تولية الخديو

توفيق الحكم فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ حتى جاوزت فى خطورتها وعواقبها ما حدث فى عهد ابيه مما دفع العسكريين والمدنيين إلى التفكير فى ضرورة أنقاذ البلاد. وخلال تلك الفترة كان الخديو توفيق قد قرب عرابى إليه، فمنحه رتبة الأميرالاي، وجعله ياورا خديويا له، كما عينه اميرا على الآلاى الرابع بالعباسية إلا أن نفس عرابى الثائره التى تعلقت بها آمال الضباط الوطنيين وتذآك لم تقبل السكوت على تسلط عثمان رفقى ناظر الجهادية على أبناء مصر وتفضيله للأتراك الشركسة عليهم، وبوجه خاص أنه منح الرتب والنياشين والوظائف الهامة للشركسة فى الوقت الذى حرم منها المصريون. وطالب الضباط الوطنيون عرابى بالدفاع عن حقوقهم، واتفقوا على اختياره رئيسا لهم، فقام عرابى بكتابة عريضة إلى مصطفى باشا رياض رئيس مجلس النظار وضح فيها تعصب ناظر الجهادية الشركسى لبنى جنسه، واجحافه بحقوق الوطنيين وطالب فيها بعزله، وتعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواه والعدل بين الجميع.

وقد أصر عرابى على مطالبه بالرغم من تحذير رياض باشا لعرابى وصحبه من العواقب الخطيرة التى يمكن ان تترتب على تقديم هذه العريضة للخديو.

واعتبر الخديو تصرف عرابى تمردا، وأمر بالقبض عليه وعلى زملائه ومحاكمتهم أمام مجلس عسكرى. ونظرا لأن

القبض عليهم فى ثكناتهم قد يثير عليهم باقى الضباط فقد تم استدراجهم إلى ديوان الجهادية. بحجة النظر فى خطة الاحتفال المزمع إقامته لزفاف الاميرة جميله هاتم شقيقة الخديو. وفى الديوان انعقد المجلس العسكرى لمحاكمتهم، ولما تسرب الخبر للضباط الوطنيين اقتحموا قاعة المحاكمة، واطلقوا سراح الضباط المحتجزين بالقوة ثم انطلقوا إلى قصر عابدين مطالبين الخديو بعزل ناظر الجهادية، والنظر فى شكواهم. وأحس الخديو بخطورة الموقف، فرضخ للأمر الواقع وأمر بعزل عثمان رفقى، وبذلك نجح العرابيون فى فرض ارادتهم وتأكدت زعامة عرابى للجيش، وعمل عرابى على تحسين أحوال الضباط والجنود، فتقدم بمنكرة إلى ديوان الجهادية طالب فيها زيادة المرتبات، وإصلاح قاتون الترقية، وتحسين نظام التغذية، وإرجاع بعض الضباط المفصولين إلى الخدمة. وقد وافق الخديو على هذه المنكرة وأمر بتشكيل لجنة للنظر فى إصلاح احوال العسكريين.

وخلال ذلك عمل عرابى على نشر افكاره بين طبقات الامه، وطالبهم بمساعدته على حفظ النظام والامن. ونظرا لتزايد الدسائس التى تحاك ضد العرابيين، ومحاولات رياض باشا رئيس النظار التخلص منهم اتخذ العرابيون موقف الحذر، كما طلب عرابى من أبناء الامة تفويضه فى الدفاع عن مصالحهم والمطالبة بحقوقهم حتى يمكنه الدعوة إلى تشكيل مجلس نيابى، واسقاط

وزارة رياض المستبدة وانهم إذا فوضوه فى ذلك فانه سيعمل كل ما يتعلق باحوال البلاد من الاصلاحات المطلوبة.

ولقى كلام عرابى اذانا صاغية من جميع المصريين فى شتى انحاء البلاد وتقدموا بعرائض التفويض له فى النيابة عنهم، وتضامنهم معه فى كل ما يقوم به من اصلاحات مما كان له اكبر الاثر فى تقوية العزائم واطلاق اسم المحضر الوطنى على هذه العرائض.

وساهم عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية بدور فعال فدعا الاهالى الى تأييد عرابى والالتفاف حوله حتى يتخلصوا من حياة الذل والاستعباد والهب حماسهم بخطبه الوطنية.

وشعر عرابى بأن مركزه أصبح قويا بتفويض جماهير الشعب المصرى له، وتأييد زملائه الضباط فقرر القيام بمظاهرة وطنية يجتمع فيها أبناء الجيش والشعب معا، فكانت مظاهرة عابدين فى سبتمبر ١٨٨١م والتي وقف فيها عرابى أمام الخديو ممثلا للأمة المصرية كلها حيث قال له بعد أن سأله الخديو عن أسباب حضوره بالجيش إلى عابدين جننا يا مولاي لعرض عليك مطالب الأمة والجيش وكلها طلبات عادلة فقال الخديو "وما هي هذه الطلبات" فرد عرابى هي "إسقاط الوزارة المستبدة، وتشكيل مجلّس نواب على النسق الاوربى، وزيادة عدد الجيش إلى القدر المعين فى فرمانات السلطانية، والتصديق على القوانين

العسكرية السابق أمركم بوضعها"، "فقال الخديو" كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آيائي واجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا" ولم يهتز عرابي من كلمات الخديوي ورد بكل قوة قائلا "لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا ترانا وعقارا، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا لم نورث ولن نستعبد بعد اليوم" فترجع الخديو إلى قصره بناء على نصيحة من معه وانتهى الأمر بقبول مطالب العرابيين فتم عزل رياض باشا وتولية محمد شريف باشا مكانه. أما بالنسبة لإنشاء مجلس نواب، وزيادة عدد الجيش فقد رأى الخديوي ضرورة الرجوع إلى الباب العالي ووافق عرابي على ذلك.

وسار العرابيون من نصر إلى نصر وافتتح مجلس النواب، ونتيجة لحدوث خلاف بين النواب والنظار في شأن الميزانية استقالت وزارة شريف، وكلف محمود سامي البارودي صديق العرابيين بتشكيل وزارة جديدة. وفي عهد وزارة البارودي تقلد عرابي وزارة الجهادية، وقام بتمصير الجيش، وإحالة عدد كبير من الضباط الشراكمة إلى الاستيداع، وأصدر العديد من القوانين في صالح المصريين مما دفع الشراكمة إلى التآمر عليه وإنهاء الأمر بمحاكمتهم وصدور الأحكام بنفي أربعين منهم إلى السودان. ولم يرض الخديو على ذلك ورفض التصديق على هذه الأحكام مما اغضب العرابيين، وتآمرت الأمور بينهم وبينه. وانتهزت

انجلترا وفرنسا هذه الفرصة وأرسلت مذكرتهما المشتركة في ٢٥ مايو ١٨٨٢ تطلبان فيها اسقاط وزارة البارودي، وابعاد عرابي عن مصر وعلى الرغم من رفض الامة كلها للمذكرة فقد وافق عليها الخديو مما أدى إلى استقالة وزارة البارودي. وتحت ضغط العسكريين استمر عرابي على رأس وزارة الجهادية، وتعهد بالحفاظ على الأمن والنظام.

وبدا الخديو وأتباعه التآمر لازاحة عرابي من مركز السلطة وذلك باحراجه باتهامه بعد القدرة على ضبط الأمن في البلاد، ولتحقيق هذا الغرض تم تدبير مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيو ١٨٨٢.

وقد استغلت إنجلترا حدوث المذبحة للتدخل عسكريا في شئون مصر، وانتهزت فرصة قيام عرابي بتجديد بعض الطوابي وعمل الإصلاحات في حصون الاسكندرية فقامت بضرب الاسكندرية بمدافع اسطولها في يوليو ١٨٨٢ وعلى الرغم من صمود القوات المصرية في مراكزها أمام قذائف الاسطول الإنجليزي فقد تم تخريب استحكامات المدينة، وهدم واحراق بعض مبانيها مما اضطر العرابيين إلى الانسحاب من الاسكندرية إلى كفر الدوار، ورفضهم أوامر الخديوي بوقف الاستعدادات الحربية واعادة الحياة المدنية. ونتيجة لإتضاع موقف الخديو المؤيد للانجليز دعا عرابي إلى عقد جمعية عمومية من كافة طوائف الشعب ليعرض

عليهم الموقف، ويشاورهم في أمر الحرب، فلبى الدعوة نحو من سبعين شخصا استقر رأيهم على لزوم الاستمرار في اعداد التجهيزات الحربية، وعلى استدعاء النظار من الاسكندرية وضرورة حضور الخديو إلى القاهرة.

وفي أعقاب ذلك أصدر الخديو امرا بعزل عرابي. وردا على ذلك عقد عرابي مجلس عام في ديوان الداخلية صدرت خلاله فتاوى من بعض المشايخ بمروق الخديوى لخبائته لدينه ووطنه وأمته وانحيازه للإنجليز.

وخلال ذلك لم يتمكن الانجليز من اقتحام استحكامات عرابي في كفر الدوار لمناعتها واستبسال المصريين فاتجهت قواتهم لاحتلال منطقة القناة مما اضطر العرابيين إلى جعل منطقة التل الكبير مركزا عموميا لقواتهم العسكرية، وقد أخطأ عرابي في اعتماده على دعوة ديلبسبس بضمنان حياد القناة ولم يستتبع لنصائح ضباطه بردمها، مما أدى إلى تغيير مجرى الحرب واحتلال الإنجليز للقناة، وهزيمة عرابي في التل الكبير واضطراره إلى تسليم نفسه للقوات الانجليزية في سبتمبر ١٨٨٢ فتم تقديمه وزملائه للمحاكمة وانتهى الأمر بنفى عرابي إلى جزيرة سيلان وتجريده من رتبه واملأه.

وعلى الرغم من مصاعب النفي والإبتعاد عن الوطن فإن
عرايى لم ينس لحظات رحيله عنها فكتب بياناً يوضح فيه علاج
مشاكل مصر والاصلاحات اللازمة لانتظام أحوالها.

واستمر عرايى فى منفاه بسيلان حتى تولى الخديوى عباس
الثانى اريكة الخديوية فى مصر، واصدر أوامره بالعفو عن عدد
كبير ممن اشتركوا فى احداث الثورة العربية فعاد عرايى إلى
مصر ووصل إلى القاهرة فى سبتمبر ١٩٠١.

وعلى الرغم من ابتعاد عرايى عن وطنه تسعة عشر عاماً فإنه
قربل بعد عودته إليه بالهجوم من البعض فقد هاجمته جريدة اللواء
واتهمه الزعيم مصطفى كامل بالضعف والجبن والتعمد فى إدخال
الاحتلال إلى مصر ١٣ أكتوبر ١٩٠١ كما تعرض عرايى لنقد
امير الشراء أحمد شوقى بقوله:.

صغار فى الذهاب وفى الاياب أهذا كل شأنك يا عرايى!!
ونظراً لتوتر أحوال عرايى الاقتصادية والضعف المالى الذى ألم به
نتيجة لمصادرة أمواله فقد قدم العديد من الالتماسات إلى
المسئولين يطلب فيها رد أمواله المصادرة ولكن مطالبه ذهبت
ادراج الرياح حت توفاه الله فى ٢٢ سبتمبر ١٩١١م ودفن فى
قرافة الامام الشافعى.

المصادر المخطوطة

- محافظ الثورة العربية محفظة رقم (٨)
- احمد عرابي كشف الستار عن سر الأسرار (جزءان)
- Broadley: The Trial Exile and Pardon of Arabi Pacha. Vol II

المصادر والمراجع المطبوعة

- سليم النقاش: مصر للمصريين، ج ٤
- عبد الرحمن الرافعي: الثورة العربية والاحتلال الانجليزي
- عبد المنعم الجميعي :
- الثورة العربية بحوث ودراسات وثائقية
- عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية
- ميخائيل شاروويم: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ج ٤
- Broadley: How we Defended Arabi and his friends.
- Cromer: Modern Egypt

الدوريات

الأستاذ: نوفمبر ١٨٩٢ - اللواء اكتوبر ١٩٠١

الوقائع المصرية فبراير ١٨٨١

عبد العال حلمى أبو شيش^(١)

(- مارس ١٨٩١)

من زعماء العربيين الذين كانت لهم أدوار مشهودة فى تاريخ الثورة وظل رفيقنا لعرابى حتى نهايتها، وقد توفى فى مارس ١٨٩١.

دخل عبد العال حلمى للجيش فى عهد سعيد باشا، ورقى من تحت السلاح ولم ينال حظا كبيرا من التعليم الحربى. وقد تدرج فى الرتب العسكرية فى عهد اسماعيل، وعندما تولى توفيق الحكم رقاها إلى رتبة القائمقام وجعله قائدا لللائى السودانى المعسكر فى طره، وبعد أن شكل على الروبى جمعية سرية فى الجيش للوقوف فى وجه مظالم الشركاسة الذين قاموا بتزليل رتب وفصل بعض الضباط المصريين، انضم عبد العال حلمى إليها. وكان من الإصدقاء المقربين إلى أحمد عرابى، وعندما تزايدت ضغوط عثمان رفقى وزير الحربسة الشركسى على الضباط المصريين وقيامه بإصدار أوامره بنقل عبد العال حلمى من لائى السودانى إلى ديوان الجهادية ليكون معاوننا فيه وتعيين أحد الضباط الجراكسة مكانه، لجأ عبد العال حلمى وعلى فهمى وبعض الضباط إلى أحمد عرابى وهم فى حالة هياج شديد وتباحثوا معه فى الأمر اقساموا على الدفاع عن حقوقهم وكرامتهم واتفقوا على كتابة عريضة إلى مصطفى رياض باشا رئيس النظار يطالبون فيها بعزل ناظر الجهادية لتعصبه لئسى جنسه وإجباره بحقوق الوطنيين كما طالبوا بان يكون ناظر الجهادية مصريا، ومع أن رياض باشا حذرهم من عواقب هذه العريضة فقد صمم الضباط الثلاثة عليها، ولما عرض الأمر على مجلس النظار أصدر الخديو أمرا باعتقال الضباط الثلاثة واحالتهم إلى مجلس عسكرى بتيمة التمرد والعصيان، فدعى عبد العال وزمعيه إلى ديوان وزارة الجهادية بقصر النيل فى أول فبراير ١٨٨١ بحجة الاستعداد لترتيب عملية الاحتفال بزفاف جميلة هانم شقيقة الخديو، وأدعى عنهم أمر المحاكمة.

ولم يكد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى يدخلون قصر النيل حتى أطاحت نيم شرازم الشركاسة بيسونيم وينز عور سلاحهم وقدموا للمحاكمة ولما علم الضابط محمد عبيد بذلك اقتحم مقر المحكمة وقام باطلاق سراحهم، وفى اعقاب ذلك ذهبوا مع جنودهم الى قصر عابدين لابلغ الخديو بما حدث وكرروا المناداة بمطالب الضباط وقد وافق الخديو على

^(١) اعطاءه من عبد العال حلمى ابراهيم نجيبى. من التاريخ الحديث والمعاصر. نقله الزيات سنة - لعمرو

طلبهم ووافق على عزل عثمان رفقى وتعيين محمود سامى البارودى مكانه كما اعلن الخديو عدم وجود تمييز بين الضباط المصريين والشراكسة فى الجيش وزيادة مراتب الضباط بهدف استرضائهم، ومع ذلك فقد ظل عبد العال متشددا فى مطالبه مندفعاً لا يحتاط للعواقب فشكك فى نوايا الخديو تجاه الضباط الوطنيين وطالب بشغل الأماكن الخالية بألوية بالعناصر الوطنية وقد صدق مجلس النظار على طلبه مما جعل الخديو يفكر فى التخلص منه.

ونتيجة لتأثر هيبة الخديو من هذا الحادث اتخذ أسلوب الدسائس للنيل من الضباط الوطنيين فأوعر إلى تابعيه باعراء جنود الألاى السودانى على التمرد على صباطهم، وتوجيه اتهامات ضد قائد الألاى عبد العال حلمى، وتحريض الجنود على العصيان، وتحريض العرائض ضد العربيين ولما انكشفت المؤامرة وحوكم مذبريها دبرت محاولة أخرى لنقل عبد العال حلمى فى ٣ فبراير ١٨٨٢ ، اكتشفت محاولة لدس السم فى اللبن لعبد العال حلمى، وبرزت شائعات ان هذه المؤامرة دبرت بمعرفة حاشية الخديو واعترف الجانى بجريمته وحكم عليه بالسجن وكوفئ عبد العال بالباشوية فى الترقيات العسكرية التى اعقبت تأليف وزارة البارودى، واتخذ العربيون هذه الحادثة سبباً لتهديد الخديو والتلويح بخلعه.

ولما عظم شأن العربيين وخشى الخديوى خطرهم حاول تثميت شملهم بأبعادهم عن القاهرة وكان من نصيب الألاى السودانى الذى يقوده عبد العال السفر إلى السودان، ولكن العربيين توقفوا عن اطاعة الأمر واضطربت الأحوال ونتيجة لشدة الضغط من الحكومة وكثرة الدسائس زحف عرابى فى مظاهرة إلى ميدان عابدين، شارك فيها عبد العال حلمى المظاهرة وقاد الألاى الثالث المشاه بعد أن رفض قائد الألاى محمد شوقى الاشتراك فى المسيرة، وذهب إلى ميدان عابدين مما أشعل فكرة تردد البعض فى عدم المشاركة، وعمل على تجنب انقسام الجيش إلى معسكرين ونجحت المظاهرة فى عزل وزارة رياض والموافقة على تولية شريف باشا وتحقيق مطالب العربيين.

وقد اشترط شريف باشا لتولى الوزارة على العربيين نقل بعض الألايات إلى خارج القاهرة، ومنها الاى عبد العال حلمى وحسماً لتجنب الخلاف وافق الضباط على رحيل عبد العال بجنوده إلى دمياط وان ينتقل عرابى بالألاى الرابع مشاه إلى رأس الوادى، فغادر عبد العال حلمى القاهرة على رأس الألاى السودانى إلى الحامية الجديدة بدمياط فى الرابع من أكتوبر ١٨٨١ وفاء لما أخذوا على أنفسهم بالابتعاد عن العاصمة، وقد جرى ذلك وسط مهرجان شعبي ومظاهرة سياسية فكان فى وداعه عرابى والبارودى وعبد الله النديم، وجمع كبير من الأهالى الذين أخذ بعضهم ينفث الرياحين والورود على رؤوس العساكر وفى دمياط

انفرد عبد العال حلمى بالسلطة فى المدينة بعدما أصر على طرد المحافظ "اسماعيل زهدى" من هناك.

ولما انكشفت مؤامرة الشراكسة ضد العربيين بهدف تصفية الضباط المصريين وعلى رأسهم عرابى وعبد العال حلمى، وشكلت محكمة عسكرية لمحاكمتهم شارك فيها عبد العال حلمى وبعد أن رفض الخديو التصديق على قرارات هذه المحكمة وتنازح الموقف أرسلت إنجلترا وفرنسا مذكرتهما المشتركة للمطالبة بمغادرة عرابى للبلاد وإلزام عبد العال حلمى وعلى فهمى وطلبه عصمت بيوتهم ولكن هذه المطالب لم تنفذ بالرغم من قبول الخديو لها.

وبعد سقوط وزارة البارودى قام الخديو باستدعاء كبار الضباط ومنهم عبد العال حلمى وأبلغهم بسقوط الوزارة وبحالة نظارة الجهادية عليه، وأنه يجب تنفيذ أوامره من الآن فصاعدا دون غيره، فكان رد عبد العال حلمى وبعض الضباط عليه بأنه يجب رفض المدكرة الانجليزية الفرنسية المشتركة التى وافق عليها الخديو أولا حتى يستطيعون تنفيذ أوامره.

وإلى جانب ذلك فقد حضر عبد العال حلمى اجتماعا بمنزل سلطان باشا بناء على تعليمات عرابى وفيه تم التشاور فى مسألة عزل الخديو وكان عبد العال حلمى من الموافقين على ذلك، وبعد أن أصدر الخديو أوامره بعزل عرابى اعترض عبد العال حلمى على ذلك وتمسك ببقاء عرابى وندد بالخديو الذى يريد تسليم البلاد للإنجليز وبيع البلاد لهم.

وعلى الرغم من تطورات الموقف فقد ظل عبد العال حلمى فى دمياط بعيدا عن الحرب ولم يشارك فى أى معارك ضد الإنجليز حتى هزيمة التل الكبير. وبعد هزيمة التل الكبير طلب عرابى من عبد العال حلمى قائد دمياط التوجه إلى القاهرة وترتيب الجنود الموجودين بها فى نقط الدفاع ضد الإنجليز ورد عليه عبد العال بأنه سيتحرك فوراً إلى القاهرة، ولكن مسيرة الحرب ونتائجها لم تمكنه من ذلك، وظل عبد العال حلمى يدعو للمقاومة حتى أرسل له الخديو إنذار بالتسليم وقد رفض عبد العال التسليم وأخذ فى الاستعداد للحرب ولكنه لم يجد بدا من قبول التسليم بعد استسلام جميع الجنود المصريين وتهديد الحكومة له بالاعدام فاصدر امره الى ضباطه بتسليم أسلحتهم وحوكم ونفى ضمن الزعماء المتنفذين وصحبته زوجته وثلاثة من افراد أسرته فى منعه حيث عاش هناك حياة رتيبة شديدة الملل، ونتيجة لإصابته بحساسية شديدة فى صدره توفى فى مارس عام ١٨٩١ وكان لموته حزن عميق فى نفوس اصحابه اد رأوا فى مصيره شبح مصيرهم وقد ذكر عرابى لنا وفاته بقوله "وفى سنة ١٣١٠هـ توفى الى رحمة الله شهيد الوطنية والعربية عبد العال باشا حلمى ودفن فى قراهه قسم مردانه وصريحه مشهور يرار".

المصادر:

- أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه، محمود الخفيف ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.
- القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية، لطيفة سالم ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١.
- الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى، عبد الرحمن الرفاعى، النهضة المصرية، ١٩٤٩.
- مصر للمصريين مائة عام على الثورة العرابية، مجموعة من المؤرخين، مركز الدراسات السياسية بالأهرام، القاهرة، ١٩٨١.
- كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ، بردولى - ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

فلسفي باشا فشمسي^(٥)

(٢٠ نوفمبر ١٩١١)

من مواليد المنوفية، توفي في ٢٠ نوفمبر ١٩١١ وقد انضم للجيش كضابط من تحت السلاح منذ عام ١٨٥٥ مع فترات انقطاع متعددة عمل خلالها في وظائف مدنية وخدم بالحرس الخديوي الخاص في عهد اسماعيل وتزوج من احدى حريم القصر وشارك في فض حركة الضباط امام وزارة المالية في ١٨ فبراير ١٨٧٩، فبعد أن فشل الخديو في فض المظاهرة ولم يستجب للضباط المحالين للاستيداع والمطالبيين بصرف رواتبهم المتأخرة لنصائحه أمر باستخدام كتيبة الحرس الخديوي التي يقودها على فهمي بمحاصرة المتظاهرين واطلاق النيران عليهم، ومع أن على فهمي استجاب للأمر فإنه طلب من جنوده إطلاق النار في الهواء فقط للسيطرة على الموقف ونجح في ذلك، وانضم على فهمي إلى الجمعية السرية التي أسسها على الروبي في اواخر عصر اسماعيل تعبيرا عن سخط الضباط الوطنيين على سيطرة الشركاسة على أمور الجيش، والمطالبة بفتح باب الترقى أمام الوطنيين والتخلص من حكم اسماعيل. وفي عصر الخديوي توفيق تم ترقية على باشا فهمي وتعيينه ياورا وقائدا للحرس الخديوي الخاص، وعندما قامت الثورة العربية تحمس لها وكان بمثابة العقل المدبر لعرايي، كما كانت له صفحات بطولة خلال مسيرتها فاشترك مع عرايي وعد العال حلمي في تقديم عريضة إلى رياض باشا رئيس النظار في يناير ١٨٨١ للمطالبة بوقف الظلم الواقع على الضباط المصريين في الجيش وسار يكون وزير الحربية مصريا ونتيجة لذلك أصدر الخديو أمرا باعتقال الضباط الثلاثة بتهمة التمرد والعصيان فأحيل على فهمي مع زميله إلى مجلس عسكري لمحاكمتهم مما أدى إلى وقوع حادث قصر النيل في أول فبراير ١٨٨١ حيث قام الضابط محمد عبيد مع قواته باقتحام مقر المحكمة وإطلاق سراحهم ودهابهم إلى قصر عابدين لإطلاع الخديو على ما حدث وعرض مطالبهم عليه ومنها عزل عثمان رفقى، والغاء التمييز بين الضباط الوطنيين والشركاسة والذي انتهى بعزل عثمان رفقى من نظارة الحربية واسنادها إلى محمود سامي البارودي. وبعد ان اشتد عود الثورة وبرزت حاجتها إلى داعية من المدنيين لتوصل أفكار العرايين إلى عموم الشعب المصري اتصل على فهمي بعبد الله النديم وطالبه بالدعوة للجيش علانية فاستجاب لذلك

(٥) اعداد - عبد المعظم إبراهيم الجبلي، اسناد التاريخ لصحة المصادر، نكلته ايزاب جامع الله، د

واصبح من أكبر دعاة العسكريين ومن أشد المتحمسين لهم ولأفكارهم. وعلى الرغم من ان على فهمي كان قائدا للحرس الخاص في قصر عابدين ، وكان مسنولا عن الالاي الأول المكلف بحراسة القصر فقد سحب عساكره وساند العرابيين في موقفهم خلال المظاهرة الذي حدثت أمام قصر عابدين رغم محاولات الخديو استمالته لتنفيذ ما يصدر إليه من أوامر وبعد نجاح العرابيين في تحقيق مطالبهم قام الضباط الشراكسة بالتأمر ضدهم، وبعد انكشاف امرهم شارك على فهمي في المحكمة العسكرية التي شكلت لمحاكمتهم والتي أصدرت حكمها بتزليل رتب أربعين ضابطا منهم وحرمانهم من الامتيازات العسكرية ونفيهم إلى السودان ونظرا للخلاف الذي حدث بين الخديو والعرابيين نتيجة لصدور هذه الأحكام واعتراضه عليها وتدخل مجلس النواب لمعالجة الموقف قدم القنصلان الانجليزي والفرنسي مذكرة تطالب بمغادرة عرابي للبلاد، والزام على فهمي وعبد العال حلمي وطلبة عصمت بعدم مغادرة منازلهم ، ولكن هذه المذكرة لم تنفذ لرفض العرابيين لها والتفاف الأهالي حولهم رغم موافقة الخديو عليها، وبعد سقوط وزارة محمود سامي البارودي استدعى الخديوي احمد عرابي وعلى فهمي وكبار الضباط وأبلغهم بسقوط الوزارة وإحالة نظارة الجهادية عليه وأنه يجب تنفيذ أوامره من الآن فصاعدا دون غيره فاجابه على فهمي وبعض الضباط بانهم لا يسمعون أوامره ما لم يرفض المذكرة الانجليزية الفرنسية المشتركة.

كما حضر على فهمي اجتماعا بعزل سلطان باشا رئيس مجلس النواب، وطلبوا بعزل الخديو ورفض المذكرة المشتركة لأنها تمس حقوق مصر. وبعد أن صدر أمر الخديوي توفيق بعزل عرابي اعترض على فهمي على ذلك في المجلس العرفي موضحا أهمية بقاء عرابي للدفاع عن الوطن والدين وندد بالخديو الذي أراد تسليم البلاد للانجليز، وطالب بضرورة الاستمرار في الحرب للدفاع عن الوطن والمقدسات وحفظ البلاد. وإلى جانب ذلك فقد شارك على فهمي في أداء اليمين الذي لقنه الشيخ محمد عبده لكبار الضباط والقسم على المصحف بضرورة التكاتف لمحاربة الانجليز إذا فكروا في غزو مصر وان من يخرج عن الصف يستحق قطع الرقبة وشق الصدر.

وبعد نشوب الحرب بين العرابيين والانجليز شارك على فهمي في معركتي القصاصين الأولى والثانية حيث حضر من القاهرة ومعه الالاي المشاه الأول لشد أزر المقاتلين والمساعدة في حفر الخنادق وأعمال الاستحكامات، وتولى قيادة قلب القوات المهاجمة للعدو، وتقدمت قواته تحت نيران المدافع لمهاجمة الانجليز، وأبلى بلاء حسنا في القتال وصمد لجهاد الانجليز، وفي

معركة القصاصين الثانية في ٨ سبتمبر ١٨٨٢ تولى على فهمى القيادة وهاجم مواقع الإنجليز في معركة استمرت نحو ثلاث ساعات وثبت ثبات الأبطال إلى آخر المعركة التي كانت من أشد المعارك بين المصريين والإنجليز حتى أصيب برصاصة في ساقه فخسر الجيش المصري باصابته خسارة كبيرة، وظل جريحا حتى أنهت الثورة فكان يتأله البطولى فى معركة القصاصين موقفا مشرفا له وللثورة، كما كانت إصابته خسارة كبرى للجيش المصرى فى وقت كانت الحاجة إلى جهوده شديدة.

وفى أعقاب هزيمة الثورة العربية تم اعتقال على فهمى وتقديمه للمحاكمة بتهمة التمرد والعصيان وحكم عليه بالإعدام وتجريده من رتبته العسكرية والقابه وعلامات الشرف الحائز عليها ومحو اسمه من دفاتر ضباط الجيش المصرى ومصادرة أملاكه ثم استبدال الحكم بالنفى المؤبد من القطر المصرى وملحقته إلى سيلان مع تخصصه فى ساعش لاعائته فى المنفى، على ان يتعهد بعدم العودة الى مصر، ولو حدث وعاد إليها خلسة تطبق عليه عقوبة الإعدام بدون أى محاكمة. وقدم على فهمى قائمة بأسماء أفراد أسرته الذين سيصبحونه الى مفاده، وهم حرمه وكريماته الثلاثة وخدمه، واقام على فهمى فى كرنومبو مع عرابي فى ظل حياة رتيبه شديدة لنملل والمعاناة ثم انتقل معه الى مدينة كندى مستسلما للامر الواقع وتعاقبت السنون عليه وهناك اختلف مع عرابي، وحدث انشقاق بينهما فى ظل الظروف الصعبة التي تعرضا لها وفترات اليأس التي صاحبتهما وخلال ذلك أصيب على فهمى بأمرض الدوزنتاريا وعسر الهضم وتضخم الطحال والكبد لذلك صرح طبيبه المعالج أن حالته الصحية فى اضمحلال، وامتداد اقامته فى المنفى سيقتضى على ما تبقى من حياته، ومع ذلك فان حاكم سيلان لم يستجب لذلك، وظل على فهمى منفيا بالجزيرة حتى صدر الأمر العالى فى ١١ يونيو ١٩٠١ بعفو الخديو عباس حلمى الثانى عنه فبارح الجزيرة فى ١٥ اغسطس ١٩٠١ ووصل إلى القاهرة فى أول سبتمبر، وانزوى فى منزله حوالى عشر سنوات منسيا بعيدا عن الناس حتى توفي بمنزله بالقاهرة فى ٢٠ نوفمبر ١٩١١.

مصادر الدراسة :

- الثورة العربية والاحتلال الانجليزي، عبد الرحمن الرافي، النهضة المصرية، ١٩٤٩.
- القوى الاجتماعية فى الثورة العربية، لطيفة سالم ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١.
- عرابى ورفاقه فى جنة آدم ، لطيفة سالم ، الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧.
- مصر للمصريين أزمة مصر الاجتماعية والسياسية الكسندر ثولش، ترجمة رءوف عباس، دار الثقافة العربية، القاهرة. د.ت.
- كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ، برودلى - ترجمة عبد الحميد سليم ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

اللواء على باشا الروبى (*) (١٩ سبتمبر ١٨٩١)

فلاح مصرى من موليد قرية (نفو) احدى قرى مركز اطسا بالقليوب . تعلم فى كتاب القرية فأجاد القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم ، ولما بلغ الخامسة عشر من عمره التحق بالأزهر وقضى به عدة سنوات ثم انضم إلى صفوف الجيش فى عهد سعيد باشا ورقى من تحت السلاح إلى رتبة الملازم ثان، وتدرج فى الرتب العسكرية لكفأته حتى وصل إلى رتبة البكباشى فى عهد للخديوى اسماعيل، وشارك فى الحملة التى وجهت إلى الحبشة عام ١٨٧٥ حيث عين رئيسا لفرع المهمات، وهناك تقابل مع عرابى الذى كان يشغل وقتها منصبا إداريا حيث عمل مديرا للنقل والحمل وهناك توطلت العلاقة بينهما، وأفصح كل منهما للآخر عن موقفه الوطنى، فانضم عرابى إلى الجمعية السرية التى أسسها على الروبى، وشارك فيها للعديد من الضباط الوطنيين بغرض التخلص من الطبقة الجركسية فى الجيش وفتح أبواب الترقى أمام الضباط الوطنيين والتخلص من الخديوى اسماعيل.

ولما نما خبر هذه الجمعية إلى الخديو وعرف مقاصدها السرية حاول استقطاب أعضائها عن طريق سياسة اللين فاستدعى ثلاثة من كبارها وهم أحمد عرابى وعلى الروبى وطلبه عصمت ، فلما متلوا بين يديه وكشف أمرهم إعتزروا له موضحين ضياع حقوقهم الوطنية بعدم ترقية إلى المناصب العليا فى الجيش ولحتكار الضباط الثراكسة لهذه المناصب، فوعد ببحث الأمر ، وانعم على سبعين ضابطا وطنيا برتبة اللقائمقام وفى مقدمتهم عرابى وعلى الروبى.

وقد اتهم على الروبى بالاشتراك فى مظاهرة ١٨ فبراير ١٨٧٩ التى سارت إلى مقر نظارة المالية للمطالبة بصرف مرتبات لضباط المفصولين المتأخرة، وتمت محاكمته مع لحمد عرابى وآخرين، ولكن انتهت المحاكمة ببراءته، وفى أعقاب ذلك ناقش عرابى مع زميله على الروبى ومحمد النادى فكرة خلع الخديو اسماعيل، ولكن أحدا لم يجرؤ على تولى قيادة الخطة، ثم ترك على الروبى وزارة الحربية وعين كبيرا لمعاونى وزارة الداخلية، ثم رئيسا لمجلس محكمة المنصورة ثم نقل رئيسا لمحكمة مصر. وعندما بدأت تباشير الثورة العربية انضم على للروبى إليها، وعاد إلى صفوف الجيش، وأصبح من أشد المتحمسين للثورة، ومن أخلص رجالها، وكانت ثقة عرابى به كبيرة لدرجة ان اشركه فى العديد من الأمور المؤثرة فى مسيرة الثورة. وعندما عين عرابى وزيرا للحربية تمت ترقية على الروبى إلى رتبة اللواء وكان من

(*) إحداد: د. عبد المسم يرادهم الجميى، استاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بكلية الآداب جامعة القليوب.

النادر ان يحصل مصرى على هذه الرتبة حيث كانت الرتبة العليا فى الجيش قاصرة على الأتراك والشراكسة، كما حصل على لقب الباشوية فى عهد وزارة محمود سامى البارودى . وبعد أن انشئت نظارة للسودان عين على الروبى وكيلا لها حيث لعب دورا مؤثرا فى إدارة شئون السودان المصرى بعد ظهور الدعوة للمهدية، واتجاهها إلى العنف فكان أول وكيل وزارة للسودان فى تايخ مصر وخلال ذلك كان يجتمع مع الضباط ويشجعهم على التأزر والتكاتف.

وبعد أن تأمر الضباط الجراكسة على الثورة العربية شكل عرابى مجلسا عسكريا لمحاكمة المتهمين من خمسة عشر عضوا كان برئاسة على الروبى، وعندما أسس عرابى المجلس العرفى لإدارة نفة للحكم فى مصر بعدما قرر الخديوى توفيق الاستسلام للانجليز ومعه كبار الأعيان، اختار على الروبى من بين اعضائه وكان دوره هاما فيما صدر من قرارات وما اتخذ من اجراءات، وعندما تأزمت العلاقة بين العرابيين والخديو، وقيام الخديو بأصدار أوامره بعزل عرابى هاجم على الروبى الخديوى فى اجتماع الجمعية العمومية للمجلس العرفى كما أوضح دور عرابى فى الدفاع عن الوطن وشرف الدين واتهم الخديو بأنه يريد تسليم البلاد للانجليز وطالب بضرورة الاستمرار فى الاستعدادات العسكرية وخلال ذلك قرر المجتمعون بقاء عرابى فى منصبه وزيرا للحربية ، وثبتت فتوى شرعية بمروق الخديوى عن الدين لانحيازه لاعداء الوطن، وإلى جانب ذلك فقد شارك على الروبى فى أداء القسم الذى تم فى قشلاق عابدين ولقته الشيخ محمد عبده لكبار الضباط الذين اقسموا اليمين بأن يكونوا بدا واحدة ضد الخديو وان يقاوموا الانجليز إذا حدثت الحرب وقاموا بغزو مصر من يخالف ذلك يكون خرج من دينه ويستحق القتل.

وعندما قامت للحرب بين العرابيين والانجليز عين عرابى اللواء على الروبى قائدا لمنطقة مريوط العسكرية ونتيجة لاصابة راشد باشا حصنى، وعلى باشا فهمى فى معركة القصاصين استدعى عرابى على الروبى لقيادة القوات المصرية برأس الوادى فى التل الكبير لنقته فيه وفى قدرته على إدارة الحرب لانه كما يذكر " كان حائزا لأعظم الصفات الممدوحة التى لا يمكن للقيام بحصرها " وحضر على الروبى إلى منطقة التل الكبير يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر ١٨٨٢ ووضع خطة للمعركة مع عرابى لينفذها مع حوالى خمسة وعشرين ألف مقاتل فى حين كان عدد القوات الانجليزية تزيد عن ٣٠ ألفا ولكن الوقت لم يسعه حيث فاجأ الانجليز قواته بعد ساعات قليلة من وصوله مما جعله لم يتمكن من تنفيذ خطته وإعادة تنظيم قواته، يضاف إلى ذلك ان عناصر الخيانة فتحت صفوف الجيش المصرى للانجليز حيث لم ينفذ

للبعض كما يقول عرابى فى منكراته أولمر على باشا الروبى، والواضح أنه كان من الصعب على أى قائد عسكري ان ينظم قواته ضد أعداء تمكنوا من السيطرة على العديد من المواقع فى ظرف ساعات فقد حضر على الروبى عصر يوم ١٢ سبتمبر وكانت المعركة فجر ١٣ سبتمبر. ورغم أننا نقدر ظروف على الروبى إلا أنه يؤخذ عليه عدم صموده وهو قائد تلك المعركة بل كان ممن تركوا قواتهم بلا قيادة حقيقية وسافر إلى بلبس دون أن يرتب خطط انسحاب جنوده الذين كان الانجليز يطاردونهم ، وفى بلبس تقابل على الروبى مع عرابى الذى كان يحاول جمع فلول الجيش ومنع العدو من الوصول إلى القاهرة ولما كانت القوات الانجليزية تطارده اتجه مع على الروبى إلى القاهرة فى قطار، وذهب إلى مقر ديوان الداخلية بقصر النيل ودعا المجلس العرفى للحضور وعقد مجلس يضم القادة للعسكريين واعيان للقاهرة لأخبارهم بأمر للهزيمة ومشاورة أهل الراى فيما يمكن فعله وبعد أن استعرضوا الأمور استقر الراى على للمقاومة وإجراء ترتيب نقط عسكرية للدفاع عن القاهرة، ولكن الاستعدادات والنخيرة كانت لا تكفى للمقاومة فعادوا إلى المجلس للعرفى وعرضوا عليه الموقف فتقرر الكف عن القتال والتسليم وتحرير عريضة إلى الخديو يلتمسون فيها العفو والاعتذار خاصة وان ما قام به عرابى كان دفاعا عن الوطن والدين وتشكيل وفد لتسليم هذه العريضة للخديو بالاسكندرية وكان على الروبى ضمن أعضاء هذا الوفد وسافر الوفد بقطار خاص إلى كفر النوار فى طريقه إلى الاسكندرية وهناك تراجع بعض أفراده عن الذهاب إلى الخديو واتفق على الاكتفاء بذهاب رئيسه على مبارك واحمد بك السيوفى وعاد الباقي إلى القاهرة خشية القبض عليهم وعلى الرغم من أن الخديو أمر على الروبى بالحضور لمقابلته فقد عاد على الروبى إلى القاهرة خشية قبض رجال الخديو عليه ومعاقبته وفى القاهرة وجد عرابى وبعض زملائه قد سلموا أنفسهم للانجليز، وأن الانجليز اتباع الخديو استطاعوا السيطرة على زمام الأمور . فقام بتسليم نفسه وقدم إلى المحاكمة العسكرية حيث تمت محاكمته فى ثلاث جلسات، وكان موقفه شجاعا ومشرقا، فأجاب بصراحة على كل ما وجه إليه من تهم ، فاعلن مسؤوليته عن جميع الأعمال التى شارك فيها أو قام بها ، ولم يلق أى لوم على زملائه فى الثورة كما رفض تقديم التماس بالعفو عنه إلى الخديو، فعندما سئل عن سبب ختمه على قرار المجلس العرفى برفض أوامر الخديو الخاصة بعزل عرابى ذكر ان الخديو كان محجورا عليه بطرف الانجليز وانه ختم على لقرار برضائه لان استمرار المدافعة عن الوطن واستمرار التجهيزات لأجل إفشال خطط الانجليز الاستيلاء على البلاد أمر يفرضه الدين والواجب، فحكم عليه بالنفى إلى منطقة مصوع

بالسودان لمدة عشرين عاما وتجريده من رتبته ونياشيته ، ولم يمض على نفيه عامان حتى اعتلت صحته، وضعف بصره ، فنقل إلى سواكن منفيا تحت الملاحظة، وكانت رداءة الطقس قد ثرت على صحته ففقد بصره ، ونظرا لضيق ذات اليد خلال فترة النفي طلب من أخيه أن يبيع له املاكه التي كانت بقريته بدفنو وتبلغ ثلاثمائة فدان ليستطيع العيش منها والأففاق على نفسه خلال فترة نفيه ولكن لم يلبث الموت ان عاجله ، فتوفى في سواكن يوم ١٩ سبتمبر ١٨٩١، ودفن فيها ، ولم تزل رفاته هناك حتى اليوم.

المصادر:

- محافظ الثورة العربية محفظة رقم ١٣ ملف ٢٤٩.
- كيف دفاعنا عن عربي وصحبه ، برولى - ترجمة عبد الحميد سليم ، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- الثورة العربية والاحتلال الانجليزى ، عبد الرحمن الرافعى، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩.
- منكرات عربي، كشف الستار عن سر الأسرار، ٣ أجزاء تقنين ودراسة د. عبد المنعم الجميى ، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٥.
- مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال فى مصر، لياس زاخوره ، للقاهرة، ١٨٩٧.
- مصر للمصريين - أزمة مصر الاجتماعية والسياسية ، الكسندر شولش - ترجمة رعوف عباس، دار للثقافة العربية، ١٩٨٣.

الأميرة نازلي فاضل (*)

١٨٥٣ - ٢٧ ديسمبر ١٩١٣

أميرة من الأسرة الخديوية، ابنة الأمير مصطفى فاضل نجل إبراهيم باشا ابن محمد علي ، ولدت في عام ١٨٥٣ وتوفيت في ٢٧ ديسمبر ١٩١٣ أسماها والدها (نازلي زينب) وكانت الأسماء المزدوجة عادة شائعة لدى الأسرة العلوية في ذلك الوقت، نشأت نازلي وسط جو يحمل مزيجا من العادات الشرقية التي اكتسبتها خلال تواجدها بالآستانة، ومن الثقافة الأوربية خاصة الفرنسية خلال مصاحبته لوالدها في الإقامة بالخارج أثناء فترة الصراع بينه وبين الخديوي اسماعيل، وظلت مقيمة بالخارج حتى وفاة والدها في عام ١٨٧٥. تزوجت نازلي مرتين الأولى في عام ١٨٧٣ من "خليل باشا شريف" سفير الدولة العثمانية في لندن. وأنجبت منه ابنتها الوحيدة "حواء هانم" التي توفيت في طفولتها . وبعد وفاة زوجها استقرت بعاصمة الخلافة حيث ضاق بها السلطان عبد الحميد ذرعا لعلاقتها بجماعة تركيا الفتاة، فاضطرت للإقامة في مصر فترة حيث ضاق بها الخديو عباس الثاني أيضا، وفي عام ١٨٩٩ تزوجت من "خليل بوحاجب" رئيس القسم الجنائي في تونس والذي تولى منصب رئيس الوزراء بعد ذلك وأقامت معه في تونس لفترة لم تستمر طويلا، عادت بعدها الى القاهرة ، واقامت في قصرها بعبدين حيث أسست أول صالون ثقافي في تاريخ مصر المعاصر شهد نروة دورها في الحياة الثقافية بمصر.

وقد اجتذبت في هذا الصالون صفوة المفكرين والأعلام من أشهرهم جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وأديب اسحق وسليم النقاش وإبراهيم الهلواني واحمد فتحى زغلول، وحسين رشدي نائبا وإبراهيم المويلحي وغيرهم من قادة الرأي والفكر والسياسة الذين لعبوا أدوارا هامة في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، كما ضم هذا الصالون بين جنباته كبار المسئولين الإنجليز أمثال "اللورد كرومر" المعتمد البريطاني في مصر، و "هارى بويل" السكرتير الشوقى و"اللورد كتشير" والمستشرق "رونالد ستورز" وغيرهم. وفي هذا الصالون بوقفت

اعداد دكتور عبد المعتم إبراهيم الحمصي، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بكلية الآداب جامعة الفيوم

مسائل الإصلاح الاجتماعى وأحوال المرأة المصرية، كما نوقشت طرائف العلوم والفنون وحلاصة الفكر الراقى ، وفيه دافعت نازلى فاضل عن عرابى وثورته، ولم تمل الكلام عن نزاهة اغراضه، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى كراهيتها للخديو توفيق الذى إنترع عرش مصر من والدها وفى هذا الصالون تولدت المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى، خاصة وأنها كانت على علاقة بأعضاء جماعة تركيا الفتاة ، وبجمال الدين الأفغانى وإلى جانب ذلك فقد توثقت علاقتها بالشيخ محمد عبده بعد عودته من منفاه واستطاعت ان تؤثر على أفكاره فى وجوه عدة، كما كان تأثيرها واضحا على آخرين فقد لعبت دورا مهما فى حياة سعد زغلول وقاسم أمين، كما كانت لها علاقات مع محمد فريد وغيره من كبار السياسيين المصريين. وحول علاقة الأميرة بالشيخ محمد عبده فقد استطاعت أن تؤثر فى أفكاره بشأن عملية الإصلاح فى مصر، حيث تغيرت أفكاره من التشدد إلى الاعتدال فأوضح أن اصلاح الأمة لا يتحقق إلا عن طريق التربية والتعليم والاستتارة، وتكوين أفرادها علميا وفكريا وانه لا يمانع فى الإستعانة بالانجليز على نوال بعض الإصلاح كما انه قاد عملية التفاهم بين السلفية والتحديث وأباح للعقل المصرى ان يفكر عن متحرج او متحفظ فى أمور السدين والسياسة والاجتماع وعرض كل شئ للنقد، واستخلاص الحقيقة دون قيود، يضاف إلى ذلك انه تعرض لموضوعات لم يكن قد تعرض لها من قبل فقام بالحديث عن فوائد حفظ الآثار وأجاز للرسامين عملهم ، وهذا الكلام لم يكن يخرج من شيخ أزهرى مثل الشيخ محمد عبده لولا تأثير الأميرة عليه، وربما كان اهتمام الشيخ محمد عبده بإتقان اللغة الفرنسية بتأثير من الأميرة أيضا وعن علاقة سعد زغلول بالأميرة فقد تمت عن طريق أستاذه الشيخ محمد عبده، فشحجته على دراسة الحقوق، وعلى تخطى الحاجر الاجتماعى وتعلم الفرنسية.

وبالنسبة لقاسم امين فقد استطاعت الأميرة تغيير مفهومه عن المرأة، فبعد أن كان يدافع عن الحجاب ويندد بالسفور تغيرت أفكاره بعد مقابلته لها، وبدأ يتحول من النقيض إلى النقيض وأصدر كتابه "تحرير المرأة" بتشجيع منها كما أصدر كتابه "المرأة الجديدة" بعد ذلك اما عن علاقة الأميرة بمحمد فريد فلم تكن طيبة فى أول الأمر نظرا لكراهيتها لمصطفى كامل ، واتهامه بالمتاجرة فى الوطنية، ومع ذلك فقد كان يحترم أفكارها ويقدر دورها ، ومعنى ذلك ان الأميرة نازلى شاركت فى صناع بعض

الزعامات المصرية وصل أفكارها فلم تظهر نزعة الشيخ محمد عبده إلى تحسين أحوال المرأة إلا بعد مقابلته للأميرة وتأثره بأفكارها، ولم تظهر زعامة سعد وتتألق بعد تأخرها على المقاعد الخشنة في (قهوة متانيا) إلا بين الباشوات في صالون الأميرة، وبعد مصاهرته للطبقة الأرستقراطية، ولم يتغير نظرة قاسم أمين عن الحجاب ولم يدع إلى تحرير المرأة إلا بعد مقابلته للأميرة التي تميزت جلسات صالونها بجذب الزعامات المصرية المعتدلة في ثقافتها ووطنيتها.

لقد وصف البعض نازلي فاضل بأنها أميرة التنوير، ووصفها البعض الآخر بأنها عميلة للاحتلال، وعن كونها أميرة التنوير فالحقيقة أنها سبقت عصرها بما تمكنت به من علم وبما أثرت به من فكر فكانت تتكلم الفرنسية كأحدى بنات السنين ذوات الثقافة العالمية والأدب الرفيع .

هذا إلى جانب أنها كانت تجيد اللغات الإنجليزية والتركية والعربية والألمانية، وانها كانت من أوائل من شاركن في حركة التنوير الفكرى وإيقاظ الحياة المصرية العامة مع بعض نساء الأسر الراقية ، وأنها شاركت فى صنع بعض الزعامات المصرية أمثال سعد زغلول قاسم أمين، حيث تم وصل هذه الزعامات وتطوير بعض مفاهيمها، أما عن كونها عميلة للاحتلال فقد تعرض البعض لذلك مستندين إلى انها كانت إنجليزية الهوى والتفكير، وان كبار الإنجليز فى مصر كانوا من رواد صالونها، ومن أصدقائها الخصوصيين، ومع ان ذلك يعد صحيحا إلى حد كبير خاصة وان لها بعض الآراء السلبية عن المصريين وعن أساليب حياتهم ومعيشتهم فيجب ان نذكر انها دافعت عن عرابي وثورته، كما سعت لتخفيف العقوبة على إبراهيم الوردانى قاتل بطرس على المعروف بصداقته للإنجليز، وإلى جانب ذلك فليس من المعقول ان يقبل رجال يضرب بهم المثل فى الوطنية وحب مصر مثل سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين ان يكون لهم صداقة بسيدة لا تحترم المصريين، ولا تقدر دورهم.

والخلاصة أن صالون نازلي كان بجانب كونه منبرا ثقافيا يتدارس فيه رواده القضايا الثقافية والسياسية وأحوال البلاد فقد كان يمثل جبهة فكرية ترد على مزاعم المستشرقين الذين قاموا بنشر كتب ومقالات تنال فى مصر وشعبها، وتصوره فى صورة مجتمع متحلف وشعب جاهل وأبرز الأمثلة على ذلك تصدى الصالون لكتائب سر باحر المصريين" الذى كتبه قاص فرنسى اسمه " السدوق داركور" كل بعمل

بالمحاكم المختلطة، فاستحدثت الأميرة نازلي المصلح الاجتماعي قاسم امين بالرد عليه بشكل يقوم على المنطق والحجج الدافعة، وليس على العبارات المنبعثة من الانفعال العاطفي، فقام قاسم امين بتأليف كتابه "المصريون" للرد على هذا الدوق، برهن فيه على قدرة مصر على النهوض وقدرة المصريين على مسايرة ركب التقدم وفهر التخلف. وهكذا استطاعت الأميرة نازلي التي تفوقت على معظم نساء عصرها في الشرق أن تؤدي دورها الطليعي في خدمة الحياة الفكرية المصرية وان تهيأ المناخ الفكرى لحركة التغيير التي كانت تترقبها مصر حتى وافاها الأجل في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩١٣.

مصادر الدراسة

- أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده، مصطفى عبد الرازق، مجلة الرسالة فبراير ١٩٣٧.
- الأميرة نازلي فاضل رائدة النهضة في مصر وتونس، أبو القاسم كرو تونس، ٢٠٠٢.
- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ج ١، محمد رشيد رضا، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، عبد المنعم الجميعي، القاهرة، ١٩٩٦.
- مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩، أوراق محمد فريد، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٧٨.

محمد عبد الوهاب وتطور فن الموسيقى والطرب

د . عبد المنعم إبراهيم الجميعي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

عندما يُكتب تاريخ الموسيقى العربية في العصر الحديث سيقف الموسيقار "محمد أبو عيسى حجر" المعروف بمحمد عبد الوهاب قمة شامخة تطل بألوان من الإبداع ، وتروى تاريخا لتطور الأغنية العربية مع موهبة فريدة قل أن يجود الزمان بمثها ، فقد امتلك عبد الوهاب ناصيتي الإبداع الموسيقى والغنائي لفترة غطت القرن العشرين . فلا غرو أنه للبلبل الصداح الذي حرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وألحانه البديعة ، وأنغامه الجميلة ، والذي استطاع أن يثبت أن الصوت البشرى يعد من أعظم الآلات الموسيقية سحرا . فقد أمتاز عبد الوهاب بخصوبة صوتية في الأربعينات والخمسينيات فضلا عن جمال الأداء وحلاوة الصوت التي خلقها الله معه كما تميز بخصوبة لحنية في الستينيات والسبعينيات^(١) حتى دانت له الزعامة في اللحن لا ينازعه فيها منازع .

ولما كانت دراسة هذه الظاهرة للفنية المميزة لا تكتمل بغير دراسة دقيقة للبيئة التي عاش فيها عبد الوهاب والمؤثرات التي ساعدت على ظهورها فإننا سنحاول مساهمة هذا الاتجاه .

نشأة عبد الوهاب والمؤثرات التي ساعدت على ظهوره :

ولد عبد الوهاب حسب أرجح الأقوال في ١٣ مارس ١٩١٠ بحارة الشعرائي (باب الشعرية) بالقاهرة مفظورا على حب الموسيقى وقد لاقى في سبيلها صعابا استطاع أن يتغلب عليها بثباته ومثابرتة . وكان لحفظه القرآن الكريم وتجويده ، وأدائه للمدائح النبوية وصعوده على منبنة الشيخ الشعرائي مؤننا للصلاة^(٢) أكبر الأثر في تكوين صوته الموسيقي وتبينته تهيئة صالحة للنمو والاستمرار ، وصقل مخارج الحروف .

وقد بدأ عبد الوهاب حياته الفنية أيام الشيخ سلامة حجازي قبيل الحرب العالمية الأولى بتقديم فقرات طرب بين فصول المسرحيات بمسرح عبد الرحمن رشدي مستغلا

(١) محمد منبى : مع روائد الفكر وتفكر : القاهرة ، تبينة العمة لتكتاف ١٩٨٢ ص ١٨٧ .

(٢) كمال أنجى : تغناء المصري ص ١١٩ .

فى ذلك صوتة العذب ، كما تأثر بطريقة الشيخ سلامة حجازى فى الغناء ، ولقد قصصانه وموشحاته^(١) . وكان حلمه الذهبى أن تهتف الناس ذات يوم باسم الشيخ محمد عبد الوهاب ، كما كانوا يهتفون باسم الشيخ سلامة^(٢) . وبعد وفاة الشيخ سلامة عمل عبد الوهاب منشدا فى فرقة الكورال التى كانت معروفة باسم فرقة على الكسار وعن طريق ذلك عرف كل أوبرينات سيد درويش وتأثر بطريقة تلحينه وتجليات تعبيره كموسيقى موهوب نجح فى تصوير الأغنية ، وضى يلزمه كظله فى غدواته وروحاته يسمع منه ويردد ألقانه . وعندما يعود إلى بيته المتواضع فى باب الشعربية مع الفجر ينقل النوتة لتلك الألبان على ضوء مصباح خافت .

عبد الوهاب متربعا على عرش الطرب :

لقد نجح عبد الوهاب فى تغذية روح المستمع العربى فاكتسحت أغانيه ساحة الغناء فى مصر والعالم العربى ، ونال شهرة لا مثيل لها وتقدم بسرعة على أكبر مطربى عصره أمثال صالح عبد الحى وعبد اللطيف البنا وغيره خاصة وأنه أدخل للموسيقى العربية تجديدات عديدة متأثرة بالموسيقى الغربية التى بدأت الأذن العربية تحس بجمالها وتألف سماعها مما أجلسه على عرش الطرب وجعل منه كروانا حقيقيا ولما بدأ عهد الأغنية السينمائية قدم عبد الوهاب للعديد من الأشكال المتنوعة للأغنية والقطع الموسيقية^(٣) فملك طريق الأغنية العاطفية أساسا وكانت أغانيه فى أفلامه مثل كلنا نحس القمر" ولما أنت ناوى تغيب على طول" وقى الليل لما خلى" وبقية الروائع ، ولم تقتصر أغاني عبد الوهاب على ذلك بل عبر بعضها عن أجواء تاريخية كما فى "كليبواترا" و"الجنود" و"الكرك" ولم تقتصر جهود عبد الوهاب الفنية على ذلك بل تطرقت إلى الأغاني الوطنية التى قدمها فى فترة الخمسينيات والستينيات وشارك بها فى أفراح بلاده وأتراحها فقدم العديد من الأغاني الوطنية منها "تكريات" قولوا لمصر" و"الوطن الأكبر"^(٤) و"صوت الجماهير" وبعد هزيمة ١٩٦٧ قدم مجموعة رائعة من الأغنيات الراضية للهزيمة والمطالبة بتحرير الأرض مثل "حى على الفلاح" و"سواعد من بلادى" حرية أراضينا" . ونبث عبد الوهاب وحده متربعا على عرش الطرب ، وعملاقا فى شارع الفن ، ورثا لحركة التجديد فى الأغنية المصرية واستمر يقدم ألقانه فى وصلات غنائية دورية ، مفضلا ألا يكون ذلك فى حفلات بالمسارح كما تفعل أم كلثوم بل يكون من

(١) رتيبه الحفنى : مرجع سبق ص ٧٠-٧٧ .

(٢) عسده كمر : مرجع سبق ص ٤٣ .

(٣) نشرت فى هذا السبب ت كبر من الضرب والمطربات منهم عبد الحى حافظ ونحاة الصغيرة ، وصاح . وشبية . وهدية كمر . وورد تحرية .

إستوديوهات الإذاعة حتى يتحرر من قيود ظنات الجمهور ، وطلبنا للحد الأقصى من الإتقان (١) واستمر عبد الوهاب لا يزاحمه أحد لأن جميع الذين جاؤا بعده كانوا أقل منه فى ناحيتى الصوت والتلحين ، كما أنه كان المنهل الذى ارتوى منه كل ملحن ومطوب ، وظل رائدا لمدرسة انتشرت فى كل أرجاء مصر فعندما ظهر عبد الغنى السيد كان صوتا فقط ، لم يكن يملك موهبة التلحين ، وعندما ظهر فريد الأطرش استطاع بفضل موهبته فى التلحين منافسة عبد الوهاب لفترة وكان صراعهما صراع يلعب فيه للفن الموسيقى الدور الأول ولكن ذلك لم يستمر طويلا لتحول نشاط فريد إلى الأفلام الغنائية ومع ذلك فقد ربحت الحياة الموسيقية من ورائهما أعمالا فنية رائعة .

أما عبد الحلیم حافظ الذى كان صاحب أحب الأصوات إلى الجماهير وإلى عبد الوهاب نفسه فيمكن اعتباره امتدادا لحركة عبد الوهاب التجديدية من حيث أسلوب اللغناء والتلحين وما فيهما من بساطة وخليفة فى الشهرة ، وليس فى موهبه الصوت والتلحين (٢) .

ما بين أم كلثوم وعبد الوهاب

لقاء اللقمة بين أم كلثوم وعبد الوهاب ما هو أسباب تأخره طوال هذه السنين ، وكيف تعرف عبد الوهاب على أم كلثوم وهل ما كان بينهما منافسة أم جفاء وما هو الوسيط الذى جمع بينهما أخيرا ؟ كل هذه أسئلة طرحها البعض واختلفوا فى تفسيرها وفيما يلى نعرض لذلك .

لقد روجت صحافة الثلاثينيات والأربعينيات لما بين أم كلثوم وعبد الوهاب من تنافس وصل إلى حد القطيعة وانقسم للرأى العام فى الإشادة بفن كل منهما لدرجة أنه بعد أن نشرت إحدى المجلات فى عام ١٩٣٣ أن عبد الوهاب ميقوم بتمثيل فيلم "الوردة البيضاء" ترددت شائعة تقول إن أم كلثوم ستمثل فيلما اسمه "الوردة الحمراء" ولما قامت أم

(١) ترجع حقيقة ذلك الأمر إلى أن عبد الوهاب صدم فى إحدى حفلاته بحية برفض الجمهور الاستماع إلى أغنيته الجنود مفضلا سماع المواويل وأغنيات الطرب مثل "مين عذبك" و"لما أنت ناوى" فاطلق صيخته المعروفة أريد أن أشد الجمهور لا أن يشنى واستبدل الحفلات المسرحية بالحفلات الإذاعية .

للتفاصيل أنظر : إلياس سحب مقتر سبق ذكره ص ٥٦ .

(٢) شحى : مرجع سبق ص ١٠٩-١١٠ .

كلثوم بالتمثيل في فيلم "وداد" دبت روح الغيرة في عبد الوهاب ، فأسند بطولة فيلمه الثاني "تموع الحب" إلى أشهر مطربة بعدها حينذاك وهي "تجاة على" ونتيجة لذلك حدثت محاولات عديدة تهدف للجمع بينهما في عمل مشترك فينزل طلعت حرب جهودا من أجل ذلك ولكنه لم يوفق واستمر التناقض على عرش الغناء بينهما ، وكل منهما يحاول أن يجذب إليه جمهور الآخر حتى نجح الرئيس عبد الناصر في تحقيق اللقاء بينهما في لحن واحد ، ففي الاحتفال السنوي بثورة يوليو عام ١٩٦٣ أقام نادي الضباط حفلا ساهرا حضره الرئيس عبد الناصر وكانت أم كلثوم وعبد الوهاب من المدعوين في الحفل . وفي أثناء تقديمهما التهاني بالعيد للرئيس طلب عبد الناصر منهما تقديم عمل فنى مشترك ، وكانت "إنت عمرى" التى غنتها أم كلثوم فى ١٢ فبراير ١٩٦٤ بداية هذا العمل الذى حقق نجاحا جماهيريا كاسحا ، وكانت مزيجا براقا من الجمل العذبة والإيقاعات الراقصة فى مقدمة موسيقية طويلة استغرقت ربع ساعة إستمع إليها أكثر من مئة مليون عربى عبر الأثير^(١) . وقيل أن تبدأ أم كلثوم فى الغناء ، وحرصا من عبد الوهاب على نجاح هذه التجربة وقف خلف الستار يقرأ القرآن الكريم وهو يجرى البروفات الأخيرة خاصة على مقمته الموسيقية ، كما شاركته أم كلثوم فى البروفات الأخيرة .

وعندما بدأت أم كلثوم فى الغناء وقف عبد الوهاب وهو يرتجف خشية الفشل يستمع لقيثارة السماء تشدو بألحانه لهذه الأغنية الرقيقة المعانى التى وضع كلماتها الشاعر أحمد شفيق كامل ، وظل عبد الوهاب يسمع من خلف الكواليس وقلبه يخفق وكانت يده لا تكفان عن الحركة ، وشفتاه ترددان آيات من القرآن الكريم حتى صفق للناس لمقمته الموسيقية وطالبوا بإعادتها أكثر من مرة والناس تصفق ، ثم بدأت أم كلثوم تغنى والناس تتمايل طربا .

رجعوني عينيك لأيامى الللى راحوا علمونى أنتم على الماضى وجراحه

الللى شفته قبل ما تشوفك عينيه عمر ضايح يحسبوه إزاي عليه

انت عمرى الللى ابتدا بنسورك صباحه

قد إيه من عمرى راح وعدا يا حبيبي قد إيه من عمرى راح

ولا شاف القلب قبلك فرحة واحسدة ولا داق فى الدنيا غير طعم الجراح

١- ربيع حصى : مرجع سابق ص ٩٢-٩٨

ابتديت دلوقت بس أحب عمري كل فرحة إشتقها من قبلك خيالي
 ابتديت دلوقت بس أخاف للعمر يجري إلتقاها من نور عينك قلبي وفكري
 يا حياة قلبي يا أغلى من حياتي ليه ما قابلنيش هواك يا حبيبي بدرى
 واللى شفته قبل ما تشوفك عنيه عمر ضايع يحسبوه إزاي عليه

انت عمري اللي ابتدا بنورك صباحه

الليالي الطوة والشوق والمحبة من زمان والقلب شايلهم عشاتك
 دوق معايا الحب دوق حبه بحبه من حنان قلبي اللي طال شوقه لحضاتك
 هات عنك تصرح فى دنيتهم عنيه هات إيدك ترتاح للمستهم إيديه
 يا حبيبي تعالى وكفايه اللي فاتنا هو فلتنا يا حبيب الروح شويه
 واللى شفته قبل ما تشوفك عنيه عمر ضايع يحسبوه إزاي عليه

انت عمري اللي ابتدا بنورك صباحه

يا أغلى من أيامي يا أحلى من أحلامي
 خدني بحضاتك خدني عن الوجود وابعدني
 بعهد بعهد أنا وانت بعهد بعهد وحدينا
 على الشوق تنام ليالينا على الشوق تنام ليالينا
 سمحت بيك أيامي صالحت بيك الزمان
 نسيت بيك أيامي ونسيت معاك الشجن
 رجعوني عنك لأيامي علموني أنتم على الماضى وجراحه
 واللى شفته قبل ما تشوفك عنيه عمر ضايع يحسبوه إزاي عليه

انت عمري اللي ابتدا بنورك صباحه

لقد بكى عبد الوهاب وهو يسمع للناس تسترديد أم كلثوم حتى أعادت للمذهب سنت مرات وهم يصفقون ويهللون بطريقة غريبة من الإعجاب ، ولما اطمأن عبد الوهاب لهذا النجاح عاد إلى بيته ليستمع إلى بقية الأغنية فيه ، وبعد أن انتهت الأغنية أرادت أم كلثوم أن يكون عبد الوهاب معها أثناء تحية الجمهور ولكنه اعتذر بلباقة بحجة أنه يخاف كثيرا من مواجهة الجماهير .

وهكذا كان هذا اللقاء اتاريخي خطوة كبيرة إلى الأمام ، لحن عبد الوهاب كلماته حرفا حرفا ، فعندما شددت أم كلثوم الليالي الطلوة ، أو دوق معايا الحب يشعر الإنسان أن هناك دعوة للحب ، وفي لحن يا حبيبي تعالى وكفاية اللي فاتنا حسن المستمع إلى أن هناك تضرع وابتهاج إلى الجالس في معبد الحب ، وهكذا كانت كل كلمة من الأغنية تشعر من يسمعه أن الذي لحنها تفحص حروفها حرفا حرفا وعاش فيها أياما وليالي قبل أن تخرج إلى الناس . وهكذا ظلت الأغنية خالدة تردها الأجيال المتعاقبة دون أن يخبو لمعانها (١) ثم تبع ذلك أعمال مشتركة بينهما وهي :إنت الحب" و"أمل حياتي" و"فكروني"، و"هذه ليلتي" و"دارت الأيام" و"غداً ألقاك" و"ليلة حب" و"على باب مصر" و"أصبح عندي الآن بندقيّة" . لقد نجح عبد الوهاب بتقانيته وتقاليعه الموسيقية وأن يكون مختلفا مع أم كلثوم عن سيقوه فوضع ألحانه في إطار مبهر استطاع به تقريب أم كلثوم من أذواق الشباب ، مما أوجد جمهورا من الجيل الجديد انذى إزدادت حماسته لأم كلثوم ، كما أن الحان عبد الوهاب استطاعت أن تقدم شيئا جديدا لهذا الصرح الشامخ (٢) .

لقد نجح عبد الوهاب في أن يفيد من أم كلثوم وتأثيرها على الجمهور ، كما استفادت أم كلثوم من عبقرية عبد الوهاب الموسيقية خاصة وأن كلا منهما أحدث انقلابا كبيرا إنسابت فيه ألحان عبد الوهاب من شفتى أم كلثوم وانطلق صوت أم كلثوم من تجليات عبد الوهاب .

والسؤال كيف تواصل اتقاء بين عبد الوهاب وأم كلثوم وما هي أحلام كل منهما التي لم تتحقق ، ولماذا لم تتحقق ؟ وهل تحول عبد الوهاب إلى كلثومى أم أصبحت أم كلثوم تعتق موسيقى عبد الوهاب ؟ ومن منهم أثر في الآخر وكيف استطاع عبد الوهاب أن يفتح أم كلثوم بالجديد في استخدام الآلات الموسيقية ؟

(١) مصطفى تنبولى : قصة حياتي . مرجع سبق ص ٢٦١-٢٦٨ .

(٢) سيرت تفتح : مرجع سبق ص ١٣٤ .

كل هذه التساؤلات أجاب عليها عبد الوهاب فى حوارہ مع سعد الدين وھبہ والذى ذكر فيه أنه فكر مع أم كلثوم فى أن يشتركا معا فى اختيار قصائد غنائية لشعراء عرب من كافة البلاد العربية ، بحيث يكون لكل بلد عربى أغنية من نظم أحد شعرائه وتم تنفيذ الفكرة بجورج جرداق فى "هذه ليلتى" ، بالھادى آدم من السودان فى "أعدا ألقاك" وكانا فى الطريق إلى اختيار قصيدة للشاعر التونسي أبو القاسم الشابي . كما فكرا فى تلحين وغناء "مجنون ليلتى" ذلك الكنز العظيم الذى تركه شوقى ولكن القدر لم يمهل أم كلثوم المشاركة فى ذلك ، فقد وافتها المنية قبل تحقيق ما إتفقا عليه^(١) .

وبالنسبة لأثر ألحان عبد الوهاب على غناء أم كلثوم فيتضح أن أم كلثوم كانت قبل عبد الوهاب تغنى للخاصة ، فلما لحن لها عبد الوهاب أخرجها عن سلوكها الفنى الكلاسيكى فاستمع إليها العامة وكان لموسيقاه ذات الإيقاعات الراقصة للمتحركة وإخالسه الآلات الكهربائية الحديثة مثل "الأورج" و"الجيتار" أكبر الأثر فى استماع العامة لها ، وكانت هذه بداية النقلة فى أم كلثوم من القديم إلى الجديد ، فقد غيرت فى طريقة التأدية لتتواءم مع اللحن . وفى الحقيقة أن أم كلثوم كانت تستطيع التلازم مع الظروف المتغيرة ، رمع الموجة الحديثة أيضا فقد قربت أم كلثوم للملحنين الشباب لإحساسها بالحاجة إلى دم جديد تجدد به فنها ورحب بذلك الملحنون الذين كانوا فى حاجة إلى صوتها المعجز ، بالتلحين لها وقد بدأت هذه المرحلة بلحن لبليغ حمدى "حب أيه" عام ١٩٥٩ و انتهت سنة ١٩٧٣ "بحكم علينا الهوى" لبليغ حمدى أيضا ، كما أنها قربت محمد الموجى منها وطالبته بالتلحين لها و قدمت له كلمات أغنية "أوقدوا الشموع" لتلحينها ولما نال اللحن إعجابها طالبته بأن يلحن "حانة الأقدار" و"محلاك يا مصرى" كما كلفته بأن يلحن لها "للصبر حدود" وإلى جانب ذلك قام سيد مكاوى بتلحين أغنية "يامسهرنى" لها .

لتهامات لحن عبد الوهاب

ولجھ عبد الوهاب فى حياته الفنية العديد من الاتهامات بسرقة ألحان سيد درويش منها ما ذكر من أن "أغنية مين عذبك" تحتوى على جملتين موسيقيتين نقلتا من ألحان سيد درويش كما إقتبس ألحان بعض رملائه أمثال زكريا أحمد وكمال الطويل ورؤف ذھنى

(١) انظر اتغير الخناك ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

ومحمد الموجي^(١) والمعلم عبده النمرdash^(٢) كما ألهم عبد الوهاب بسرقة ألحانه من الموسيقى الغربية ، وأن روائعه الموسيقية مقتبسه ومأخوذة من خارج الحدود لفنانين كبار من أوروبا وغيرها فأغنية أهون عليك مقتبسة من أوبرا عايدة للموسيقار الإيطالي فردي و"النيل نجاشي" من نشيد "بحارة الفولجا" و"أيها الراقدون" مأخوذة ألحانها من بداية السمفونية الثامنة (الناقصة) لبيتهوفن وأغنية "ياننيا يا غرامى" لحن فولكلورى روسى ، وأحبه ميمما اشوف منه من تانجو إسبانيول ، ويالى نوبت تشغلنى من أوبرا ريجوليئسو "فردي" وأهواك واتمنى لو أنساك لحن شعبى ألمانى . . إلى غير ذلك^(٣) . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إتهم عبد الوهاب باقتباس المقدمة الموسيقية لأغنية "إنت عمري" من لحنين الأول للموسيقى السوفيتى "لميروف" وهو الذى جعله الجزء الأساسى من المقدمة واللحن الثانى أخذه عبد الوهاب من الموسيقى الإمبرانى ، أرثورو بافان" ومع ذلك فإن عبد الوهاب لم يهتز ، وكان رده على من اتهموه بالسرقة بقوله "إن حياتنا العامة والخاصة قد تأثرت بأساليب للعزف فملايسنا ونظمنا ومعظم تقاليدنا الآن ، تسير على الأسلوب الغربى الذى يسيطر على حياتنا ومظاهر نشاطنا الاجتماعى والفنى ، ولا ضرر من هذا ، فالتأثر بالاتجاهات الأجنبية ومسايرة موكب النهضة العالمية شئ تحتمه سنة التطور . وهكذا وجدنا اتجاهها عاما جديدا فسرنا معه . . ولينا نداءه وأدخلنا أساليب جديدة فى موسيقانا . . واقتبسنا من الغرب لنطعم إنتاجنا الموسيقى ولكن ليس معنى هذا الاقتباس أن نحطم روحنا وجوهرا ونتخلى عن طابعنا الشرقى . علينا أن ندخل فى الموسيقى الشرقية آلات جديدة نأخذها عن الغرب . للتعاون على أداء أنغام وإبرازها بشكل أوفى . . وعلينا أن ندخل فى ألحاننا أنغاما جديدة ، وأن نلجأ إلى التوزيع الموسيقى ، ولكن علينا أن نحفظ بروحنا الشرقية . وأن نترجم بالموسيقى عن عواطفنا الأصيلة ، فنكون مخلوقا شرقيا صحيحا وإن بدت فى ثياب غربية"^(٤) .

(١) انظر على سبيل المثال روز اليوسف العدد ٣٢٨٣ فى ١٣ مايو ١٩٩١ .

(٢) ترددت شائعة أن أحد مواريل عبده النمرdash صاحب مقهى بالدراسة كان يتردد عليها عند الوهاب قائم عند الوهاب بنسبة لألحانها إلى نفسه . ونما سئل عند الوهاب عن ذلك لم ينكر بل تحدث عن

عبده النمرdash بإعجاب كبير : أنظر خيرى شلبي : مرجع سابق ص ٤٤-٤٥ .

(٣) رنية تحصى : محمد عند توهنت حيلته وفيه ص ١١٥ .

(٤) رنية تحصى . مرجع - سق ص ١١٦ .

ومعنى ذلك أن عبد الوهاب لم ينكر الاقتباس من الموسيقى الغربية ولم ينكر تأثره بها بل اعتبره ضرورة واجبه موضحاً بأنه إذا كان قد تمرب إلى فنه شيء من الغرب فهو غالباً فن شرقي تمرب إلى الوجدان الغربي من بنون أسلافنا إذن فهي بضاعتنا ردت إلينا ، فهو يعطى للناس ما يحس به ، وإحساسه يحته عليه معايشة عصره مع عدم تنكره لمصريته كما أكد أن هذا الكلام ميتكفل المستقل بإثباته .

وبالنسبة لاتهام عبد الوهاب بـ"قتباس الحانه من أعمال زملائه فما أشيع فى الوسط الفنى أن الملحن "رعوف ذهنى" (١) هو الذى لحن لعبد الوهاب ألحان فيلم "غزل البنات" التى غنتها لىلى مراد ، وأنه لحن أغنية "فكرونى" التى شنت بها "أم كلثوم ونسب للحن لعبد الوهاب وأن المطرب "محمد أمين" اشترك مع عبد الوهاب فى تلحين الجندول و"الكرنك" ، وأن الوسط الفنى شهد مشادة بين عبد الوهاب والمطرب "حسين جنيـد" لأن الثانى نسب إلى الأول أنه نقل جزءا كبيرا من موسيقاه فى القطعة الموسيقية "أنا وحبيبي" (٢) .

وإلى جانب ذلك حقر البعض من شأن عبد الوهاب واتهمه بتحطيم التراث رغبة منه فى اللئاء (٣) .

تقييم دور عبد الوهاب فى تطوير الموسيقى والطرب :

من الصعب إنكار أن عبد الوهاب كان يتمتع بمواهب كبيرة ، استطاع من خلالها أن يضيف لفن الطرب العربى إبداعات ساعدت تجربة الغناء الحديث ، ورغم الاتهامات الموجهة إليه ومعاول الهدم التى حاولت للنيل منه فقد ظل بفنه وعبقريته علامة مضيئة فى عقول ونفوس عشاق فنه على طول البلاد وعرضها ، وذهبت إلى طى النسيان كل الأقاويل حول لقتباساته من هنا أو هناك ، وصعد عبد الوهاب على المسلم للموسيقى واستطاع أن يشقلب الدنيا كما تنبأ له سيد درويش فعبد الوهاب يحسب له أنه درس الموسيقى الشرقية والغربية على أسس سليمة ، وأنه لم يهجر الموسيقى الشرقية بل سعى للسير بها بخطى عقلانية لتطعيمها بالموسيقى الغربية . وكانت نفيه القنرة على ذلك .

(١) كانت العلاقات بين عبد الوهاب وأسرعة رعوف ذهنى وضة لدرجة أنه تزوج "أقيل نصار" ابنة عم

رعوف ذهنى .

(٢) لمعى المظيى : نماء ورجال من مصر ص ٦٩٧ .

(٣) محمد أبو الخضر منى . موسيقى شرقية ص ١٠٠ وبعده .

ففى نادى للموسيقى كان يقدم للتراث وفى الحفلات الخاصة كان يغنى أغانيه الجديدة ،
 التى أضاف فيها للموسيقى المصرية بعض الآلات الأوربية دون أن يقضى على النغمة
 الشرقية للصميمة وبمعنى آخر فإن ما فعله عبد الوهّاب هو أنه فتح نوافذ الموسيقى
 الشرقية على الموسيقى العالمية ومزج كلا منهما بالآخر ، وكانت عمية المزج هذه
 تحتاج إلى صانع ماهر مثل الجواهرجى الذى لا يخطئ ميزانه فى عمية خلط المعادن
 النفيسة حتى لا يحدث ضياع للتقديم سعيًا وراء الجديد . وهذا ما فعله عبد الوهاب فـجـو
 خالد بأغانيه تجده فيها كافة طير غرد يتنقل من غصن إلى غصن فيحول كل معانى الحياة
 إلى أحاسيس رفيقة تـمـمو بالنفـس إلى الأفـاق . إن دور عبد الوهاب فى تكريس أشكال
 متطورة للأغنية المصرية وعطاءه للخصب الفياض ، والخروج بالموسيقى العربية إلى
 أسمع البشر بعد تطويرها وانتظامها فى ركب الموسيقى العالمية ولفنت الأنظار إلى
 التراث الشرقى ، وإدخاله أشكالًا جديدة وآلات جديدة لم تكن مستخدمة فى الأغنية العربية
 من قبل يعد إضافة هامة إلى التراث الموسيقى الغنائى .

ومما سبق يتضح أن عبد الوهاب استطاع أن يرفع تـراية الجديدة فى الغناء ، التى
 التفت المستمعون حولها وتمكن من تغيير وجه الطرب فى مصر منذ منتصف العشرينيات
 حتى وقتنا هذا ، ووضع الأسس الصحيحة المتطورة لفن غناء العربى التى ستبقى تراثنا
 للأجيال فى مجال الإبداع الذى لا ينقطع على مر الزمان .

ومما يحمد لعبد الوهاب أنه فى سبيل احتفاظ اسمه بجاذبيته ولمعانه لم يعتمد على
 ماضيه الفنى أوصيته المدعم الأركان بل اعتبر نجاحه دافعا لمكابدة الشوك حتى تكفى منه
 أجزاء جسمه مهما بلغ إتقانه الفنى مـداه . ونتيجة لجهود عبد الوهاب فى خدمة الموسيقى
 العربية ، وتمكنه من الجمع بين حلاوة الصوت وحسن الضرب ، وإتقان للضرب بالعود
 والتلحين بنفسه فقد نال فى حياته تكريما لم ينله فنان مثله فحصل على أوسمه ونياشين
 عديدة كان أبرزها قيام أكاديمية الفنون بمنحه الدكتوراة الفخرية ، ونيله رتبة اللواء
 الشرفية ووسام الاستحقاق ، وجائزة الجدارة ، والأسطوانة البلاطينية^(١) .

لقد انعكس عشق عبد الوهاب لفنه على حبه للحياة فكان أبرز ملامحه هو قدرته
 على قهر الزمن ، ونفى تجاعيد السنين . فقد أحب حياة وحرص على صحته قدر طاقته
 فكان يأكل بانتظام ويمارس رياضة المشى ، وينام مبكرا ويستيقظ مبكرا ، وظل طوال

(١) ونزيد من التفاصيل انظر تربيته الحفنى : مرجع سابق ص ١٠٤-١٠٥ .

حياته يحنو على جسده بانتقاء كل ما يمكن أن يسبب له المرض إلى حد الوسوسة لدرجة أنه - كما نكر بنفسه - كان يغسل الصابونة قبل استعمالها بصابونه أخرى .

وفي الثالث من مايو ١٩٩١ رحل عبد الوهاب إلى مثواه الأخير ، وشيع جثمانه في جنازة عسكرية مهيبه تقديرا لما قدمه للفن من جليل الخدمات .



أم كلثوم وتطور فن الغناء العربى

قدم للتخت الشرقى بعد سيد درويش عبقریات غنائية فذه استطاعت تقديم الفن الراقى المتميز أمثال فاطمة البلتاجى^(١) (١٨٩٩-١٩٧٥) الشهيرة بأم كلثوم^(٢) صاحبة الموهبة للفذة ، ولبنه للشعب الكادح من الفلاحين الفقراء والتي استطاعت بموهبتها المقترنة ببقاقتها التى كونتها بجهدا وإصرارها ومثابرتها مواجهة الصعوبات التى وقفت في طريقها^(٣) . وتمكنت بجمال صوتها ، وروعة أدائها ، وبذكائها في إختيار كلمات وألحان أغانيها وبقوة شخصيتها من أن تستولى على قلوب معظم المتحدثين بالعربية سواء في العالم العربى أو في غيره كما أسهم صوت أم كلثوم بمساحته للخصب ، ومقاماته المصقولة ، وذبذباته السحرية ونبراته الوجيهة التى يتمثل فيها الجمال كله فسي تكوين أساليب جديدة في للتحن العربى أتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا جديدة ما كانت تتاح لهم لولا وجود هذا الصوت الذى غير وجه للغناء في مصر وفيما يلى نعرض لذلك .

رحلة أم كلثوم مع الغناء :

أم كلثوم من الشخصيات التى يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصرى ، خاصة وأنها تحمل في حياتها قصة هذا الشعب الذى خرجت منه ، وقصة العصر الذى عاشت فيه فقد عاصرت عهد السلطان فؤاد وتحولت مصر إلى ملكية وعاصرت فترة حكم ابنه فاروق كما عاصرت قيام الثورة وتوقيع اتفاقية الجلاء وتأميم

(١) ولدت في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٩ في قرية طماى "الزهايرة" التابعة لمركز السنبلوين دقهلية ، وارتوت علم النغم من نبع الشيخ أبو العلا محمد وارتفع صيتها عندما انتقلت إلى القاهرة في عام ١٩٢٢ ، وكان رحيلها في الثالث من فبراير ١٩٧٥ .

(٢) للكلثوم في بعض معانيه اللغوية الراهية الحريية التى يرفعها الجندى فوق رأسه .

(٣) لم تتخل أم كلثوم مدرسة ولا جامعة ، ولم تتعلم سوى فترة قليلة في للكتاب تعليما بسيطا لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة ، ولكنها بذلت جهودا ذاتية لتتقن نفسها ثقافة عالية ، وتمكنت من ذلك حتى أصبحت سيده مقلدة ، لغتها العربية ممتازة قراءة وكتابة ، واستطاعت أن تحفر لنفسها هرما شامخا بين العظماء .

قناة السويس والسد العالي ، والصحوة للسياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والذى عبرت عنها في أغانيها لذلك فإن قصة حياتها لا تعنى حياة فنانة مطربة موهوبة فحسب بل تذكرنا بجزء مهم من حياة المصريين ، ومن تاريخ مصر الحديث ، وبفترة المخاض التى عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا في العبور بمصر في تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين^(١) ، وتركيز الجهود والإمكانات من أجل الارتقاء ، والخروج من دائرة التخلف والسلبيات التى عاشتها مصر في فترة الاحتلال البريطانى ، والمحاولات المستمرة للتخلص منه ونفض غباره عنها . وكانت أم كلثوم من أولى الفنانات المصريات اللاتى فرضن احترامهن الفنى والاجتماعى على مختلف طبقات المجتمع المصرى .

وقد بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها إبراهيم البلتاغى المنشد في المولد وأفراح القرى ومع أخيها في قرى المنبلاوين ، وبعض أنحاء الريف المصرى طوفا شاقا استغرق بضع سنوات من طفولتها وصياها المبكر الذى ارتدت خلاله للشال والعقال وملابس الصبيان ، وغنت شوايح التراث الدينى الصوفى التى قام والدها بتحفيظها لياها . وقد أتيج لأم كلثوم وهى في نحو السادسة عشرة من عمرها أن تغنى لأول مرة في مكان قريب من القاهرة ، إذ دعيت مع والدها وشقيقها لإحياء ليلة المولد بإلقاء بعض التواشيح الدينية والإنشاد الدينى في دار أحد عليه للقوم في المجتمع القاهرى بضاحية حلوان ، وكان من الممكن أن تستمر حياة أم كلثوم الفنية كذلك لولا أن للقر وضع في طريقها من أتاح لها رسم ملامح المنعطف الكبير في حياتها . فقد إنتقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ أبو العلا محمد^(٢) الذى تصادف أن سمعها في القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف أنه موجود في القطار ، ومن يومها توثقت العلاقة بينهما ، ويتوجه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة في عام ١٩٢٢م ، وأخذت تغنى في "مقهى سانتي" بالأزبكية وفي "مسرح البوسفور" في ميدان باب الحديد بدون فرقة

(١) عاشت أم كلثوم عصر طلعت حرب وسعد زغلول ومصطفى عبد الرازق وأحمد شوقي وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم .

(٢) ولد في بلدة بنى عدى بمديرية أسبوط في عام ١٨٧٨ ، وتعلم في الأزهر ، وتحول إلى فن الغناء ، وكان متأثرا بطريقة عبده الحامولى في الغناء وبأسلوبه في اللحن ، وظهر ذلك جليا خلال تلحينه لأم كلثوم . قام بتلحين عيون الشعر الرفيع ، كما لحن القصائد الصوفية ، وقد ارتبطت به أم كلثوم ارتباطا التميز بالامتياز . وظل الشيخ أبو العلا من أعمدة الغناء العربى حتى وافاه الأجل في الخامس من يناير ١٩٢٧ .

موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية ، وخلال هذه الفترة كان الشيخ أبو العلا بمثابة الأب الروحي والمدرسة الحقيقية التي تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذي اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها ، ونقل نوقه الفنى إليها ودرّب حنجرتها على الألحان العربية للصميّة ، وبدأ بتحفيظها قصائد عبده الحامولى ، ويدربها على ألحانه ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تخليص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والعجربى ، وببنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا راقيا يبعث للغناء العربى الأصيل من مرقدته وينطلق بالموسيقى العربية فى آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد ، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى وعن همومه وأفراحه^(١) .

وقد وجد للشيخ أبو العلا فى أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معا فأخذ على عاتقه أن يتبنى هذه الموهبة ، وأن يحيطها بكل الظروف المناسبة ليقيم من خلالها فنه الراقى المتميز فتولى صوت أم كلثوم بالتدريب واستطاع صقله إلى أعلى مستوى ، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية التى شربت خلالها كل قطرة فن وثقافة من أستاذاها ، فظهرت أمام الجمهور لأول مرة فى خريف عام ١٩٢٣ على مسرح "بيلوت بامسك" فى شارع الألفى وهى مرتدية ملابسها الريفية تصاحبها مجموعة تتشد دون مصاحبة أى آله موسيقية للحن الدينى المشهور .

"مولاي كتبت رحمة الناس عليك"

وكادت هذه المرة تضعف من معنوياتها وتثبط من همتها خاصة عندما لم يعجب أحد المستمعين منظر ملابسها ولا طريقتها فى الغناء فصاح قائلا (كتب علينا الغلب يا أختى) وضح الجمهور بالضحك وانفجرت المطربة الناشئة بالبكاء ، ولكن الشيخ أبو العلا لم يتركها لليأس بل وقف بجانبها يساعدها على تثبيت أقدامها موضحا لها أن الجمهور مادة خام والفنان هو الذى يشكلها بيديه ، وأنه على المطربة أن تتفهم الجمهور الذى تغنى له لتتمكن من السيطرة عليه وتوجيهه . وظل هذا الشيخ الفنان بجانبها حتى وقت على

(١) رجاء النقاش : نغم أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ ص ١٠٧ .

قديماً . فغنت أم كلثوم للشيخ أبو العلا عشرة ألحان^(١) . منها تحفته الغنائية "وَحَقَّكَ أَنْتَ
 للمنى والطلب"^(٢) (عام ١٩٢٦) التى غناها الشيخ أبو العلا من قبل ناسجا فيها على
 منوال طريقة عبده الحامولى فى تلحين القصائد ، وهى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى
 الذى كان شيخاً للأزهر . وبشاء الظروف أن يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها
 أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد الرزاق^(٣) وأسرة آل
 المهدي^(٤) ومن خلال هاتان الأسرتان استطاعت أم كلثوم أن تتعرف على للنخبة المتقدمة
 فى مصر ، كما استمدت منهما زادا وطنيا ساعدها على تفهم مجريبات ما حولها .
 وأثناء ذلك استمر الشيخ أبو العلا فى وضع بصماته الفنية لإبراز صوت أم كلثوم فبعد أن
 غنت قصيدة "وَحَقَّكَ أَنْتَ المنى والطلب" غنت له "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيِّعاً" (عام
 ١٩٢٨) من نظم شاعر العصر الأيوبي "ابن النبيه" بعد أن غناها الشيخ أبو العلا وسجلها
 على أسطوانة فكانت من أجمل الألحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء ، حيث
 وضع الشيخ اللحن والكلام فى وعاء واحد وأتاح لصوت أم كلثوم أن يستعرض كل جماله
 واقتداره وعنوبته وجدلته فى هذه الأغنية .

وهكذا أكمل الشيخ أبو العلا من خلال صوت أم كلثوم مهمته فى تخليص الغناء
 العربى من العجمة العثمانية ، والرطانة الفارسية ، والألفاظ اللغوية التى عبثت بحناجر
 المطربين والمطربات لفترات طويلة^(٥) .

ويبدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه كما
 كان الشأن فى الغناء العربى أثناء ازدهاره وهكذا افتتحت أم كلثوم عهداً جديداً فى غناء
 القصيدة العربية ، ونجحت فى أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة وعلى ألحان جديدة
 وعلى يد الشيخ أبو العلا توسعت أم كلثوم فى استخدام المقامات الغنائية التى لم يكن

-
- (١) سهير عبد الفتاح : حياة صوت أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ ص ١٧-١٨ .
 (٢) غنت أم كلثوم مقطوعات من هذه الأغاني فى فرقة عكاشة خلال عرضها رواية "محمد على وفتح
 السودان" بمسرح الأريكية حيث كان يتخللها مقطوعات غنائية .
 انظر البلاغ فى ١٧/٣/١٩٢٦ والأهرام فى ٩/٥/١٩٢٦ .
 (٣) كان بيت آل عبد الرزاق من بيوت العلم والامتياز فى ذلك الوقت فهو الذى خرج منه على
 ومصطفى عبد الرزاق .
 (٤) تبنى أمين المهدي رائد هذه الأسرة تعليم أم كلثوم أصول الموسيقى والعزف على العود .
 (٥) كمال النجمي : تراث الغناء العربى ص ٧٢ .

يعرفها رجال المولاد وحلقات الذكر والأنشيد الدينية ، وبجهوده نضج صوت أم كلثوم وتمت رعايته فنيا بالتدريب والتنقيف (١) ، لدرجة أنها جعلت "القوم سكارى من الطرب" ودفعهم إلى طلب الإعادة وتصفيق الاستحسان (٢) وإلى جانب ذلك فقد لحن الشيخ أبو العلا لأم كلثوم قصيدة "لصب نفضحه عيونته" التي ألّفها أحمد رامى ونشرها فى جريدة المصور ومطلعها :

لصَّب نفضحه عيونته

وتتم عن وجسد شلونه

إن تكتمنا الهوى

والدء أفتله دفينته

ونتيجة لذلك ظلت أم كلثوم متعلقة بأستاذها ، ولم تنس أبدا فضله عليها بل ظلت تذكر نوره فى حياتها الفنية ، ويأنه أضح أمامها آفاقا موسيقية واسعة وغرس فى نفسها غرما غائيا طيبا ، وطبعها بطبعه (٣) . ويمثل إخلاص أم كلثوم للشيخ أبو العلا ووفائها له أنها سارت فى جنازته وراء نعشه فى الخامس من يناير ١٩٢٧ فى الوقت الذى لم يكن مألوقا أن تسير امرأة وسط الرجال فى جنازة تصير فى شوارع وأزقة المدينة ، كما يمثل إخلاصها له مسابقتها للتقاليد الموسيقية الشرقية التى عملها لها فقد استطاعت أن تحفظ عن طريق الشيخ أبو العلا أنوارا كثيرة لمحمد عثمان ، وعبد الحامولى ، ويوسف المنيلاوى وللشيخ أبو العلا نفسه الذى كان يلحن لها العديد من أغانيه فى البدايه ، وأن تسامر هذه الأوار لفترة .

ونتيجة لذلك ارتبط ظهور أم كلثوم بثورة فنية قومية فى الموسيقى والطرب وكانت قدرات صوتها ، وما فى أغانيها من ألحان من أبرز عوامل النجاح لهذه الثورة (٤) يضاف إلى ذلك أنها جمعت فى داخلها أرشيفا يعتبر ثروة فنية وتاريخية رائعة خاصة وأنها كانت تحفظ من الألحان والأغاني القديمة ما كان قد اندثر من أسماع الناس

(١) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

(٢) الأهرام فى ٩/٥/١٩٢٦ .

(٣) مهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٩ .

(٤) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

وأفواههم^(١) . وظلت أم كلثوم ساحرة في بساطتها وعقالها ولباسها العربي ونضارتها التي لا تتفد ، وجلس حولها والداها وإخوتها وأبناء عمومتها يرددون وراءها ما يحفظ للمسلم الموسيقى سلامته ، والناس ينصتون إليها مشدوهين . ولما كان ينقص أم كلثوم لكي تتطلق إنطلاقتها الكبرى عنصرًا آخر مهما وهو الشاعر الذي يفهم صوتها ويكتب لها نصوص أغانيها فقد وجدت ضالتها في الشاعر أحمد رامى^(٢) الذي عاد من بعثته في فرنسا في ٢١ يوليو ١٩٢٤ وبدأ يكتب لها بلغة جديدة تتسم بقدر أكبر من الوحدة اللغوية ، وبمستوى أسمى في التعبير ، وقد ساعده على ذلك أن صوتها كان أحد المؤثرات التي استفزته لكتابة شعره ، واستثارت إلهامه فنظم لها العديد من الأغاني التي يفهم معانيها كل الناس حتى يرددها الجاهل والمنقف والفلاح وابن المدينة وغيره ، وقد بدأت أم كلثوم موسمها الغنائي الثاني في عام ١٩٢٤ في صالة "مانتى" واستهلت بمونولوج من تأليف رامى عنوانه (خايف يكون حيك ليّه) من تلحين صبرى النحريرى وظلت علاقة أم كلثوم ورامى تزداد وثوقا ولم يفترقا منذ ذلك الوقت ، فكتب لها أكثر من ٢٥٠ قصيدة غنائية اختارت منها ما راق لها . وكان لاتصال رامى بأم كلثوم أكبر الأثر في النهوض بالأغنية المصرية ، فبعد أن كانت تتميز بالإباحية في التعبير بدأ رامى بشعره يحسب للقصيدة للفصحى إلى قلوب العامة معتمدا في ذلك على جمال صوت أم كلثوم وبيدع نظمه وحلاوة عباراته . ونتيجة لذلك أخذت شخصية أم كلثوم الفنية في التبلور ، كما أخذ صوتها يجذب جمهور المستمعين ، وعباقره الملحنين الذين اكتشفوا قدراته واستطاعوا من خلاله أن يقدموا أجمل وأرقى ما عرفته الموسيقى العربية من ألحان هذا العصر^(٣) والذي كانت حنجره لم كلثوم ناطقة بإبداعاتهم وكان من أبرز هؤلاء محمد القصبجى^(٤)

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، مرجع سابق ص ٢٤ .

(٢) ولد في ١٩ أغسطس ١٨٩٢ بحى السيدة زينب بالقاهرة ، وتخرج في مدرسة المعلمين العليا ، وللتحق بوظيفة في قسم الفهارس بدار الكتب ، وصدر له أول دواوينه في عام ١٩١٨ ، سافر في بعثته إلى باريس لدراسة الفارسية ، وفي عام ١٩٢٤ عين مستشارا فنيا بالإذاعة وعضوا بلجنتى الشعر والغنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٢٢ .

(٤) ولد مع سيد درويش في عام واحد (١٨٩٢) ودرس في كتاتيب الأزهر ثم درس أصول الموسيقى العربية وللعزف على العود ، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية ، وكان ظهور أم كلثوم بمثابة نقطة تحول في حياته الفنية ، كما كان تطعمه للموسيقى العربية بالموسيقى الغربية لثرا في إيراد طبقات أم كلثوم الصوتية .

الذى خلع عمامته وجبته وليس البدلة وكان فى مقدمة المجددين فى فن الغناء وقد قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر من ثلاثين لحنا ، كانت عبارة عن محاولات وتجارب استفاد فيها من أساليب الفنون الغربية والشرقية بما فيها الأساليب التركيه ، ويعتبر مونولوج "إن كنت أسامح" الذى لحنه لأم كلثوم أعلى صيحة فى التجديد الغنائى ، وقد سار على منواله كل من رياض المنباطى^(١) وزكريا أحمد^(٢) وداود حسنى^(٣) ، والدكتور أحمد صبرى التحريرى ، ومحمد عبد الوهاب ومحمد الموجى وكمال الطويل وسيد مكاوى وبلغ حمدى وغيره . وكانت ألحان كل منهم لأم كلثوم لا يمتاز عنهم فيها أحد ، خاصة وأنها كانت كالنحلة التى تأخذ من كل وردة رحيقها . وقد كانت علاقة أم كلثوم بملحنينها علاقة من نوع خاص فهى لا تغنى للحن فقط ، بل تلهم الملحن وتبشر ألحانه فى الآفاق . ولم تكن شريكة عادية فى الأغنية بل كانت الطرف الأقوى نظرا لأنها قارئة ذكية تستطيع أن تستوعب معانى الكلمات على أعلى درجات الثقافة الفكرية لذلك ، كانت تختار للكلمات وتعلنها أحيانا مهما كان الشاعر الذى يؤلف أغانيها ، يضاف إلى ذلك أنه كان لها رؤيتها فى اختيار الكلمات دون مجاملة لأحد على حساب فنها الأصيلى ، فلم يعرف عن أم كلثوم أنه كان لها شلة من مؤلفى الأغانى الذين يحاصرونها بأعمالهم بل كانت تختار من دواوين الشعر التى كانت تفتتها فى مكتبتها الخاصة ما يتلاءم مع رغبتها سواء كانت على صلة بهذا الشاعر أو ذاك وأبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره الشاعر السودانى "الهادى آدم" عن قصة اختيار أم كلثوم لإحدى قصائده وهى قصيدة "أعدا ألقاك" . يخوف فؤادى من غدى" أنه فوجئ بوصول خطاب من سيدة الغناء باسمه تدعوه فيه للحضور إلى القاهرة للاستماع إلى إحدى قصائده التى اختارتها من

(١) كان أول لقاء للمنباطى بأم كلثوم فى عام ١٩٢٢ على رصيف محطة (درين) دقهلية خلال اشتراكها مع والدها فى سهراته وإياليه بإنشاء المدائح النبوية والقصائد الدينية ، ولم يكن يدري أحد منهما أنه سيلتقى بالآخر مرة ثانية ، وستكون ثمار لقاؤهما تلك الروائع والبدايع اللحنية التى تزخر بها المكتبة الغنائية . انظر . بريزم للموسيقى . التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٠ .

(٢) كان زكريا أحمد صاحب نصيب وافر فى رسم الحنجره الذهبية لأم كلثوم ، وفى تشجيع والدها على العمل بالقاهرة .

(٣) لحن داود حسنى لأم كلثوم مجموعة من الأدوار والطباقيق ذات القيمة الفنية العالية .

(٤) طبيب أسنان وملحن وتعاملت معه أم كلثوم فى بدايه حياتها الفنية وقيل احترافها الغناء .

ديوانه الذى لم يرسله إليها بل كانت قد اشترته رغم أن أعلى أمنيته التى لم يكن قد تمكن من تحقيقها قبل ذلك هو الاستماع إلى أم كلثوم فى أى من حفلاتها^(١) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت أم كلثوم تختار لحن أغانيها وتتصرف فيه وتفرض صوتها عليه^(٢) وليس أدل على ذلك من أنها كانت تتحكم فى ألحان أغانيها ، فكان يمكنها وهى تغنى أن تطيل فيه أو تختصره إذا أرادت ، وكانت الآلات الموسيقية غالباً تخفت أصواتها عندما يرتفع صوت أم كلثوم بالغناء . لقد كان دور أم كلثوم فى الارتقاء بالغناء المصرى إلى مستوى شاعرى أكثر نبلا ، ويتضح ذلك فى أنها جعلت الجمهور ينتقل من مستوى الأغاني المبتذلة ذات السدلالات والإحياء الهابطة ، والميوعة والتأوهات مثل :

"هات القزازه واقعد لاعبني" و"ارخي الستارة الللى فى ريجنا أحسن جيراننا تجرحنا"

و"صفورى يا أمه صفورى لا لعب وأورى له أمورى"

و"يوم ما عضتلى العضة وجابولى طاسة الخضة"

و"أبيع هدومى علشان بوسه من خدك للقشدة يا ملين"

يا حلوة زى اليببوسه يا مهلبية كمان وأحسن "

و"اشبكها واحبكها بببوس وانزل على صورتك واعض وأبوس"

حتكك بتتك وتعاليلى يا بطة ، وتعال يا شاطر نروح القناطر ، وغير ذلك من الأغاني الرخيصة التى تعبر عن تفسخ المجتمع وتفشى روح الانحلال فيه والتى كانت تجد شهرة ورواجا لا قبل لأحد بمقاومتها إلى مستوى القصائد ، والشعر الراقى ودينا الطرب الأصيل مثل "إن حالى فى هواها عجب" أو رباعيات الخيام^(٣) .

وعلى الرغم من أن هذا الطريق لم يكن سهلا ، خاصة وأن الاتجاه السائد لدى الفن فى ذلك الوقت كان يميل إلى أن يسود للنوق للرخيص ، وانحدار القيم ، فإن الحرب بدأت تشتعل ضد أم كلثوم من جهات عديدة ومع ذلك فقد حرصت على أن تبدأ عصرا جديدا من الغناء ، وأن تتمسك بما تؤمن به وأن تبعد عن الأغاني منخفضة المستوى والتى

(١) مصطفى الضمرانى : فصليا ثقافية معاصرة ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٦٦ .

(٣) المصور : تصريح لأم كلثوم فى ١٩٧٥/٢/٧ ص ٢ .

كانت شائعة في الأربعينيات وعلى الرغم من مطالبة البعض لها أن تغنى أغاني من اللون الذي كان سائداً في ذلك الوقت ومحاولتهم المستمرة للضغط عليها^(١) فقد استطاعت أم كلثوم أن تنتصر على تيار الأغاني المبتذلة ، ورفضت تماماً أن تستسلم لهذا النوع من الأغاني ، وظلت تبحث عن نصوص غنائية نقية رفيعة مهذبة ، فغنت لأمير الشعراء أحمد شوقي^(٢) الذي وجدت في شعره معيناً سلسبيلاً ولشاعر النيل حافظ إبراهيم^(٣) ولأبي فراس الحمداني وغيرهم ونتيجة لبروز أم كلثوم في مسرح الغناء ، ومناقستها لمعاصريها فقد تعرضت للعديد من الافتراءات والإتهامات في محاولة من بعض منافسيها للإساءة إليها في شخصها وإشغالها عن فنها ، فادعى رجل من ذوى الأملك بقنا يدعى "عبد الستار للهالي" زورا أنها زوجته ، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمتها ، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة ، وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التلفونية التي كانت ترهق أعصابها ، كما حاولت منيرة المهدي سلطانة الطرب وقتذاك الإطاحة بأم كلثوم التي اعتبرتها المنافسة الأولى لها وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم في بداية حياتها الفنية ويقف من خلفها التخت وتردد بعض الأغاني الدينية والطقاطيق متحدية بذلك أم كلثوم الحقيقية ، وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد ، ونشرتها

(١) يؤكد ذلك أن أم كلثوم جاءت في المرتبة الثالثة في الاستفتاء الذي جرى في عام ١٩٢٦ عن أحب

المطربات فكانت الأولى منيرة المهدي ، والثانية فتحية أحمد ، وكانت الثالثة أم كلثوم .

أحمد زكي عبد الحليم : نساء فوق القمة ، القاهرة ، دار الفيصل ١٩٨٧ ص ١١٨ .

(٢) بادر شوقي بكتابة قصيدته الوجدانية البارعة "ملو كنوس الطلاء" فكانت أول قصيدة من شعره

حفظتها أم كلثوم في عام ١٩٣١ ثم غنت له "الملك بين يدك في إقباله" وقصيدة "ريم على القاع بين

البن والعلم" والتي سماها شوقي "نهج البردة" لأنه نسج فيها على منوال قصيدة البردة للبوصيري ،

وإلى جانب ذلك فقد اختارت أم كلثوم من ديوان شوقي ما يطابق الأحداث التي مرت بها مصر

لغنائها ومنها قصيدة للنيل ، وقصيدة إلى عرفات الله . والاشتراكيون أنت إمامهم .

(٣) يروى أن أم كلثوم كانت على صلة بحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري وكان لها معها ومع

أصدقائهما جولات وحكايات ، وتعلمت منهما فنون الأديب وفنون النكتة أيضا .

للتفاصيل أنظر عبد العاطي كيوان : للفكاهة والمخزية عند حافظ إبراهيم القاهرة ، النهضة

المصرية ١٩٩٧ ص ٦٢ .

الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها ، كما كانت تكتب في إعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية ، على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتف وراءها واختفت الفتاة الأخرى ، حيث لا يصح إلا الصحيح خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود ، ووقفت كالطود الشامخ تتكسر الأمواج عند قدميها ، وصمدت أمام كل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف ، لا تهتم إلا بفنها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها وصوتها الجميل .

آة



عبد الحليم حافظ إنطلاقة جديدة في سماء الطرب

امتدت فترة نجاح عبد الحليم حوالى عشرين عاما من منتصف الخمسينيات إلى منتصف السبعينيات . وقد شهدت فترة ازدهار نجاحه وشعبيته الكاسحة ازدهارا رائعا فى شتى جوانب الحياة الثقافية فى مصر ، واقترن هذا الازدهار بالتحويلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أحدثتها ثورة يوليو ١٩٥٢ فالعلاقة بين أغانى عبد الحليم والتحويلات السياسية والاجتماعية لا تقتصر على أنها ظاهرة فنية موهوبة فحسب بل هى ظاهرة تاريخية واجتماعية أيضا ، فقد عبر عبد الحليم فى أغانيه عن الثورة وإنجازاتها ، وعن مكاسبها التى حققتها لها الثورة^(١) مما اعطاه الفرصة ليصبح نجم الشباب الأول .

لقد نشأ عبد الحليم يتيما وعانى مرارة الحرمان بعد أن فقد أمه ساعة مولده ، وقد والده بعد أمه بأسبوعين وعاش كقروى بسيط ، ضعيف البنية بحكم ما دخل جسمه وهو صغير من أمراض كالبلهارسيا وغيرها حيث لم يدرك أن التربة التى لم يعط ظهره لها فى قريته بالشرقية ستصبح سبب عذابه وسيظل يعانى من آثارها مثل ملايين القرويين المصريين ، ثم تيسرت له فرصة الدراسة فى المعهد العالى للموسيقى المسرحية الذى تخرج منه فى عام ١٩٤٩ ، وساعدته موهبته على الصعود إلى ميكروفون الإذاعة ، فقبل مطربا إذاعيا بعد أن استمعت إليه لجنة سماع الأصوات بالإذاعة فى أغنية "ظالمه" التى لحنها له "محمد الموجى" ، وابتسم له الحظ إذ صادف نضج موهبته التحول الاجتماعى الذى صاحب ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فشارك فى مهرجانات هيئة التحرير التى كانت تقام بمناسبة احتفالات ثورة يوليو ، وكان رغم حزنه الدفين الموروث من أيام الحرمان الطويلة التى عاشها فرحا سعيدا مثل بقية أبناء طبقته من المصريين بما تحقق على أيدى الثورة ، فراح هو وجيله يغنون لأول مرة أغانى مرحلة متفائلة بالحياة وغير يائسة من لقاء الحبيب كما كانت تتردد الأغانى السائدة فى ذلك الوقت والتى كان الحزن يخيم على أغانى الحب واليأس من فراق الحبيب ولهيب الشوق الذى يصعب أطفأؤه فغنى أغنية

(١) جلال أمين : ماذا جنث للمصريين - تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ١٩٤٥-١٩٩٥ ، القاهرة ، مكتبة الأسرة



عبد الحليم حافظ



شادية و عبد الحليم حافظ في فيلم حن الوفاء



عبد الحليم مع فريد الأطرش

صافيني مرة (١) " التي نالت أعجاب الحاضرين لما فيها من فرح وابتهاج بالحياة ،
وتقاؤل برضا الحبيب وكانت سببا في انطلاق شهرة عبد الحليم وإعجاب الملايين بصوته
فأصبح معروفا ومشهورا والناس تشير إليه في كل مكان ، ويطلبون أغانيه في
الحفلات (٢) .

وقد لعب الموسيقار "محمد حسنى الشجاعى" والموسيقار "كمال الطويل" و"محمد
الموجى" أدوارا مهمة في حياة عبد الحليم ، فقد وجهه الشجاعى إلى دراسة الآلات
الموسيقية التى صقلت مخرج صوته وقامت بزيادة حصيلته كمطرب ، وجعلته أقدر على
معرفة إمكانات صوته . وشجعه "كمال الطويل" على احتراف الغناء بعد أن تخصص فى
دراسة الآلة الموسيقية "الأبوا" ، وساعده فى العمل كمطرب رسمى بالإذاعة . أما محمد
الموجى فقد كان بمثابة الانطلاقة الجديدة التى ساعدت عبد الحليم على الظهور خاصة
وأنه كان يبحث عن أداء وأسلوب جديد فى الغناء ، وكان عبد الحليم بمثابة هذه
الانطلاقة . ونتيجة لذلك أخذ الطويل والموجى يركزان أعمالهما على عبد الحليم بعد أن
كانا يوزعان الألحان بين "تجاح سلام" ونجاة" و"صباح" ومحمد قنديل" وإلى جانب ذلك فقد
كان من حسن حظ عبد الحليم أن يلتفت "محمد عبد الوهاب" و"أم كلثوم" إلى صوته من
خلاله تسجيلاته الصوتية .

فقد تعرف عبد الوهاب على عبد الحليم عندما استمع إلى صوته وهو يغنى فى
الإذاعة بصوته الحالم الرقيق "ياتر سايل بين شطين يا حلو يا أسمر" فاستدعاه إلى
مكتبه واستمع إلى صوته بعد أن غنى له أغنية "جبل التوباد" التى كانت بصوت
عبد الوهاب ومن ألقائه الرائعة ، والذى استطاع عبد الحليم أثناء غنائها أن يكون فوق
مستوى التقليد ، فغنى بإحساسه وانفعاله ، وبطبيعة صوته المستقلة ، وليس كما يقلد
الآخرون عبد الوهاب تقليدا أعمى . وقد أراد عبد الوهاب فى بداية علاقته بعبد الحليم أن
يحتكر أعماله كمطرب تسجل أغانيه على أسطوانات وفى أفلام من إنتاجه خاصة وأن عبد
الوهاب شعر بحاسته الفنية بأن عبد الحليم "هو الواد اللى هايكسر الدنيا" وسرعان ما

(١) كتبت هذه الأغنية ولحنت ليغنيها عبد الغنى السيد ، ولكن كلماتها لم تعجبه فكانت من حظ عبد الحليم .

(٢) مجلة أكتوبر : العدد ٨٣٤ فى ١٨ أكتوبر ١٩٩٢ حوار لى لى مع مجدى العمروسى .

غضب عبد الوهاب على عبد الحليم بعد أن خرج عن طوعه وتعاقد مع السيدة آسيا التي انتجت له فيلم "لحن الوفاء" فأمر بعدم دخوله مكتبه ، وسرعان ما عادت الأمور إلى مجاريها بعد أن تدخل مأمون الشناوى فى الأمر وحضر عبد الحليم واعتذر لعبد الوهاب وقبّل رأس الأستاذ ، ومن وقتها دخل عبد الحليم قلب عبد الوهاب وأصبحا صديقين وشريكين (١) . وسارت الأمور على ما يرام ، وأصبح لعبد الحليم مكانة خاصة عند عبد الوهاب خاصة وأنه كان معجبا بصوته وأسلوبه فى الأداء ، ودقته فى التّدريب ، فبدأ يلحن له معربا عن حاجة المجتمع إلى صوته ، ومن هنا أصبح لعبد الحليم كيان مستقل ، ووجود مؤكد وبصمة واضحة فى عالم الغناء وكانت أول أغنية لعبد الحليم من ألحان عبد الوهاب هي :

إيسه ذنبى إيسه ما تقولى عليه
تخاصمنى ليه لما اتست حبيبي

وقد نجحت هذه الأغنية نجاحا هائلا ، وكان عبد الحليم سعيدا بنجاح- الذى ساعده فيه التغيرات التى أحدثتها الثورة ، فغنى الأغاني التى تتطوى على اعتزاز المصرى بنفسه سواء إزاء الحبيب أو المحلل الرابض على أنفاس أبناء وطنه وغنى للسد العالى ، قلنا إحنا هانبنى وأدى احنا بنينا السد العالى ، يا استعمار بنيان بايدينا السد العالى وغنى نعيد الناصر أغان عديدة منها أغنية ناصر ، وأغنية أحلف بسماها وبترابها أحلف بدروبها وأبوابها ، ما تغيب الشمس العربية طول ما أنا عايش فوق الدنيا ، وظل عبد الحليم رمزا للأمل والمستقبل الزاهر وساعده فى ذلك أبناء جيله من الشعراء والملحنين فقدم له "صلاح جاهين" و"مرسى جميل عزيز" و"الأبنودى" كلمات أغاني ذات معان بهيجة وبسيطة ومعبرة وصادقة ، ولحن له "كمال الطويل" و"الموجى" و"بليغ حمدى" مجموعة من الألحان الجميلة والصادقة التى أطلقت طاقاته الشعورية عند حدها الأقصى ، وشكلت من أدائه شخصية غير مسبوقه فانطلقت نبرات صوت عبد الحليم مستمدة من أحاسيس الطبقات الشعبية المصرية ، ومن تراثها الموسيقى فغنى للناس ، وغنت الناس معه . ونتيجة لذلك احاطت

(١) كامل الشناوى . مجلة الفن أول أبريل ١٩٩١ .

الثورة وزعيمها جمال عبد الناصر عبد الحليم بذراعيها ، وكانت أغانيه بمثابة الصوت المعبر عن أهدافها .

ومما يذكر أن الرئيس عبد الناصر وقف بقوة بجانب عبد الحليم وساعده على تخطي المشاكل التي تعرض لها ، فعندما شارك عبد الحليم فى حفل كانت تغنى فيه أم كلثوم ، وقد غنت أم كلثوم قبل عبد الحليم وتألقت كالعادة ، وامتعت الجمهور الذى طالبها بالمزيد لدرجة أنها أنهت وصلتها فى الثالثة صباحا وسط ثورة من التهليل والتكبير ولما صعد عبد الحليم للغناء كانت نصف الصلاة قد خرجت مما جعله يعلن على الهواء أن أم كلثوم تعمدت أن تطيل فقرتها الغنائية حتى تقلل من قدره أمام الناس حين يغنى بعدها ويكون الجمهور أغلبه قد انصرف وأنه لا يعرف إذا كان طلوعه على المسرح بعد كوكب الشرق معناه شرف له أم مقلب قد شربه ولما سمعت أم كلثوم بذلك غضبت غضبا شديدا مما دفع المشير عامر إلى التدخل وإصدار أوامره لعبد الحليم بالاعتذار لها وإلا قام باعتقاله . وهنا تدخل عبد الناصر فى الموقف لحماية عبد الحليم ، وقرر أن يجعل أم كلثوم هى نجمة حفل عيد الثورة بينما يكون عبد الحليم منفردا هو نجم حفل عيد تأميم قناة السويس^(١) .

والسؤال المطروح هو ماذا عن علاقة عبد الحليم بفريد الأطرش وهل استمر الوفاق بينه وبين عبد الوهاب . الواقع أنه كان لكل من المطربين لونه الخاص وقد التقيا خلال رحلة العمر على ود ومحبة ، وإن كان البعض قد نجح فى تعزيز صفو علاقتهما فى كثير من الأحيان وتصوير جو المنافسة المفتعلة بينهما ، وقد أكد ذلك الصحفى الكبير مصطفى أمين بقوله لم يحارب عبد الحليم فريد الأطرش ولم يدفع أحدا إلى اضطهاده ، ولكن الشلة التى كانت حول فريد هى التى صوّرت له هذا . . . ولو قدر لفريد أن يجد فى حياته الناصح الأمين ، أو الصديق الوفى أو الشريك كما وجد عبد الحليم حافظ لكان نجاحه الكبير قد تضاعف مرات ومرات" .

أما عن علاقة عبد الحليم بعبد الوهاب فقد إزدادت وثوقا لدرجة أن عبد الوهاب لحن له أغنية" من غير ليه" ليغنيها بعد عودته من رحلته العلاجية فى أوروبا ، ولما كان للقدر

(١) سعيد عكاشة : السياسى والفنان ، عبد الناصر وأم كلثوم مقال بهلال نوفمبر ٢٠٠١ ص ١٢٢ .

رأى آخر فقد سعى كثير من المطربين والمطربات الفوز بالأغنية غير أن عبد الوهاب رفض أن يعطيها لأى منهم وغناها بنفسه (١) خاصة وأنه لم يكن ملحنًا محترفًا يذهب له المطربون فيلحن لهم ، ولكنه كان يفضل صاحب الصوت الجميل ليلحن له ، هذا عن دور عبد الحليم فى الغناء أما عن دوره على شاشة السينما فقد ظهرت له أفلام عديدة منها فيلم لحن الوفاء وكان أول أفلامه التى فتحت له النافذة الكبيرة على الشاشة البيضاء ، كما كان الدرس الأول له فى عالم السينما وحول ذكريات عبد الحليم عن هذا الفيلم يذكر "انتقلنا إلى تصوير خارجى ، انطلقنا إلى حديقة الأسماك لتصوير مشهد وكان المشهد بينى وبين المطربة شادية وكان على أن أمسك بيدها ، وأن أغنى لها ، وأن أقول لها كلمات الحب ، وفجأة شعرت بأننى مراقب لقد تجمهر جمهور حديقة الأسماك حولنا ، وفقدت كل قدرتى على مواجهة الكاميرا وعلى مواجهة شادية ، وعبثًا حاول المخرج "إبراهيم عمارة" إقناعى بمواصلة التمثيل ولكن كنت أخاف من ازدحام الناس حولى ، واضطر "إبراهيم عمارة" أن يستعين بالبوليس . . وكانت هى المرة الأولى التى أغنى فيها وأمثل أيضا ، فى حراسة الهراوات والبنادق والخوذات (٢) . وتوالى بعد ذلك أفلام عبد الحليم التى عشقها الشباب والتى قام بتمثيلها مع مشاهير الممثلات فى ذلك الوقت مثل أيامنا الحلوة مع فانت حمامة ، وليالى الحب مع آمال فريد ، ويوم من عمرى مع زبيده ثروت ، والخطايا مع نادية لطفى، وشارع الحب مع صباح ، ومعبودة الجماهير مع شادية ، والبنات والصيف مع سعاد حسنى وزيزى البدرأوى ، وأبى فوق الشجرة مع نادية لطفى وهكذا والواضح أن عبد الحليم فى أدائه لأغاني هذه الأفلام كان قد تأثر بأغاني عبد الوهاب السينمائية ، وإن لم يقلدها . وقد نجحت هذه الأفلام وأصبح عبد الحليم على كل لسان .

والخلاصة أن صوت عبد الحليم كانت له مكانة خاصة بين الناس خاصة لدى الشباب المحبين من الجنسين فكان صوته أحب الأصوات لديهم وأكثرها نفاذا إلى قلوبهم ، وكانت أغانيه تتردد على أفواههم خاصة وأنها كانت أحسن أصوات المطربين الشبان الذى أمتاز بمتانه أدائه ودقته ومعدن صوته الخصب وفطرته الموسيقية الغنائية .

(١) رتيبه الحفنى : مرجع سابق ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) عبد الحليم حافظ . منكراته ومجموعة أغانيه ، بيروت ، المكتبة الحديثة ص ٤٤-٤٥ .

فهرست

الصفحة	الموضوع
١	مقدمة
٣	رفاعة الطهطاوي
١٣	عبدالله النديم
١٨	أحمد لطفى السيد
٢١	محمد حسين هيكل
٢٤	محمد طلعت حرب
٢٩	محمد شفيق
٣٩	أحمد عرابي
٤٨	عبدالعال حلمي
٥٢	على فهمي
٥٦	علي الروبي
٦٠	الأميرة نازلي فاضل
٦٤	محمد عبدالوهاب
٧٥	ام كلثوم
٨٥	عبدالجليل حافظ

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com